محمد إبراهيم عبدالله

الفِكرُ أوّلاً




اهدنا الصراط المستقيم
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين
صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

اسم الكتاب : الفكر أولاً

المؤلف : محمد إبراهيم عبد الله

حقوق الطبع والنشر

مسموح بها لكل انسان

copyright © 2023

منشورات آفاق للتنمية البشرية

https://bit.ly/2AMnHF6

www.facebook.com/aafaqhd

aafaqhd1@gmail.com

توضيح مهم :

يُسمح بنشر الكتاب والنقل والاقتباس منه

بشرط الاشارة للمصدر.

التصميم والإخراج للمؤلف

Mosul — الموصل

Iraq — العراق

المحتويات

المُفتتَح	٤
لماذا الفكر أولاً	٥
- نعم أنت مفكر	٨
ما هو الفكر	١٠
لماذا لا تتقبل المنظومة الفكرية التجزئة؟	١٥
المنظومة الفكرية ومشكلةُ تخلف المسلمين	٢٠
أولاً: الاسلاميون	٢٨
ثانياً: العلمانيون	٤١
الفكرُ والحكم	٤٩
الفكر والفساد الاداري	٦٥
الإصلاح يبدأ بنظام التفكير أولاً	٦٦
- الفضاء الأول (المدخلات)	٧١
- الفضاء الثاني (العمليات)	٧٢
- الفضاء الثالث (المخرجات)	٧٣
كيف نصلح النظام الفكري المنحرف؟	٧٧
من هو المسؤول عن اصلاح النظام الفكري في المجتمع؟	٧٨
كيف يتشكل الفكر؟	٨٠
أولاً: الوالدان	٨٢
ثانياً: الأسرة	٨٧
ثالثاً: المدرسة والمجتمع	٨٩
رابعاً: المعتقدات والقيم والمعايير	٩٤
خامسا: قصور الحواس	١٠٢
كيف يعمل نظام التفكير عند الانسان	١٠٦
آلية عمل نظام التفكير	١١٠
أمراض في الفكر	١١٩

أولاً: الجهل ١٢٠
ثانياً: الحل الوحيد ١٢١
ثالثاً: التحيز الادراكي ١٢٢
رابعاً: الاستعلاء ١٢٥
خامساً: تغليب العاطفة ١٢٨
سادساً: البقعة العمياء ١٣١
سابعاً: فرط الثقة ١٣٤
ثامناً: تبني افتراضات ومقولات خاطئة ١٣٦
تاسعاً: التعصب والانغلاق ١٣٨
كيف يعمل النظام الفكري السليم ١٤٢
مواصفات النظام الفكري السليم ١٤٣
أولاً : أن تكون مدخلاته صحيحة ١٤٣
ثانياً: أن تكون نتائجه محققة للأهداف ١٤٣
ثالثاً: أن يكون ناقداً ١٤٥
رابعاً: أن يكون منصفاً ١٤٦
خامساً: المراجعة والتصحيح ١٤٦
سادساً: تعدد الخيارات ١٤٧
سابعاً: التعلم المتواصل ١٤٨
الخلاصة ١٥١



المُفتتح

هذا الكتاب لم أسطّرْهُ لأغيّرَ العالم، فليس هذا في تفكيري ولا في تقديري..

ولكنها تجربةٌ فكريةٌ عشتها واستفدتُ منها وسعدتُ بها، ولم أزلْ، وكانت هذه التجربة من أفضال الله تعالى عليَّ ولطفه ورحمته. فأحببتُ أن أشاركها كي ينتفع بها غيري.

وغاية ما آملُ أن يقرأَ ما سطّرتُ فردٌ أو أفرادٌ، مهما كانوا قلّة، ويطبقوه في حياتهم، وعلى أفكارهم، ويجدوا أثرهُ الايجابيَّ كما وجدتُ، ويسعدوا بهذه التجربة كما سعدتُ.

وهذا يكفي..

محمد إبراهيم

الموصل

محرّم ١٤٤٥ هـ
آب ٢٠٢٣ م

(1)
لماذا الفكر أولاً ؟

- أفكارَكَ هيَ التي تَصنَعُ عالمُكَ
- ومجموعَ أفكارِنا هيَ التي تَصنَعُ العالمَ مِنْ حَولِنا
- لا يمكنُ اصلاحُ أي شيءٍ في هذه الحياة ما لم نصلح الفكر أولاً..
- ولا يمكنُ التغييرَ الى الأفضل ما لم يتغير الفكر الى الأفضل أولاً..

الفكرُ هو أول خطوة لصناعة أيّ شيءٍ في الوجود من قِبَلِ الانسان.

وهذه السُّنَّةُ الكونية هي الحقيقةُ الغائبةُ عن الكثيرين، وعدم الالتفات لها هو الذي يورثُ الفشل في أي خطوة يقوم بها أيَّ مصلح أو داعٍ للتغيير في أي شأن من شؤون الحياة.. في الدين، في الاقتصاد، في الصناعة، في الزراعة، في الثقافة والفن...الخ.

ظاهراً تبدوا هذه الحقيقة بسيطةً وعادية ولا تحتاج الى فلسفة كثيرة، ولا بذل جهد ولا كثير عمل. وقد يهزُّ الكثيرون رؤوسهم موافقة لك إذا ذكرتها.. لكن الواقع يقول غير ذلك!

الواقعُ أنَّ أصعب الأشياء في الحياة هو تغيير الفكر أو تطويره.

فالفكر تركيب عقلي معقد مكتسب، ينمو مع الانسان دون أن يشعر به، وتُنسج خيوطه بخفاء عبر السنين حتى يغدوا نسيجاً متماسكاً عصياً على التفكيك والتغيير.

لذلك تجد التركيز في المؤسسات التعليمية والدينية والثقافية في عالمنا المتخلف يقتصرُ على السلوك وظاهر القول والعمل فقط، لأنها الأسهل في التغيير كما يظنُّ القائمون على هذه المؤسسات. ولا ينتبه أحدٌ لما يحمل هذا الفرد أو ذاك في رأسه من أفكار تدفعه لقول دون آخر وسلوكٍ دون آخر[١].

ولذلك تجد المفاجآت المتكررة:

- عند الآباء والأمهات من تقلّب سلوك أولادهم.

- وعند الحكومات من تقلب سلوك موظفيهم.

- وعند التجمعات السياسية والاصلاحية من تقلب سلوك قادتهم وأتباعهم.

---

١ - وهذا خلاف فلسفة الاسلام في التغيير والتطوير.
يقول الحقُّ تبارك تعالى ﴿..إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ..﴾. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.
وتعبير - ما بأنفسهم - هو فكرٌ في الأساس يُنتجُ قولاً وسلوكاً.. والتركيز على المُنتَجِ فقط وهو القول والسلوك، وعدم الاهتمام بالأصل الذي أنتجه وهو الفكر، لا ينفع.

وجزء من هذا التقصير والغفلةِ في التركيز على الفكر يعودُ بالأصلِ الى مفهومٍ خاطئ للفكر، حيث يظنُّ الكثيرون أن مفهوم الفكر والعمل الفكري خاص بالفلاسفة والعباقرة والكتاب والعلماء فقط، ولا شأن للإنسان العادي بهذا المفهوم.. ويتوهمون أنَّ المفكّرَ هو انسان ذو ذكاء وقدرات عقلية أكثر تميزاً ورقياً من غيره من البشر. وأكّد هذا الوهمَ اطلاق وسائل الاعلامِ لقب المفكّر على كبار العلماء والفلاسفة والكُتّاب فقط.

والحقيقة أن كل انسان عاقلٍ هو انسانٌ – مفكّرٌ– بحسب علمه وامكاناته العقلية. بل لا يمكن للإنسان الاّ أن يكون كائناً مفكراً.

يمكنك أن تسمي المتأمّلَ بحقائق الوجود فيلسوفاً، وتسمي العالم بالأحكام الشرعية فقيهاً، وتسمي الباحثَ المدقق في التأريخ مؤرخاً.. ولكن وصف شخص ما بأنه مفكّر هو كوصفه بأنه متكلم سواءً بسواء، ولا يضيف هذا الوصفُ معلومةً جديدة.. فالتفكير ليس حرفةً يختص بها فئةٌ متميزةٌ من البشر، ولا ينبغي لها أن تكون كذلك.

نعم أنت مُفكّر

وهذا هو ما يميزك عن بقية مخلوقات الله تعالى.

لأنَّ الفكرَ عند الانسان يؤدي دوراً مصيرياً.. ويكفي أن تعرف أن أي تغيير أو تلاعبٍ بهذا الفكر ينقل صاحبه من حالٍ الى حال، فقد يرتقي به الى أعلى عليين أو يهبط به الى أسفل السافلين.

لذلك ترتبط حياة الانسان ومصيره بفكره ارتباطاً لا ينفكُّ ابداً.. وهذا الارتباط يُنشئ لنا معادلةً سحريةً تحكم حياتنا كلها وعالمنا بما فيه. وهي أخطر معادلةٍ ستتعلمها في حياتك كلها.

وهذه المعادلة السحرية التي سأخبرك بها الآن ستغير حياتك جذرياً إن وعيتَها وطبقتها. بعد أن تسير معي تدريجيا في صفحات هذا الكتاب، وتتأمل فيه كي تطبقَ ما تقرأ عن علم ومعرفة، وتستند في تطبيقكَ الى أسس راسخة.

والمعادلة بسيطة ومن أربع كلمات فقط:

غيّرْ فكركَ يتغيرُ عالمكَ

هل الأمر بهذه البساطة؟!

نعم هو بهذه البساطة، لذا يخفى على الكثيرين ولا يلتفت اليهِ أحد .

وأخطر السنن في هذا الكون أبسطها ، لأن بساطتها تُغري بإهمالها وعدم الاهتمام بها .

ومع ذلك فإنَّ تطبيق هذه المعادلة يحتاج منك الى جهد وعزمٍ وتصميم . . فلا يغرينَّك قلة كلَماتها ، فتتوهم أنَّ تطبيقها كذلك سهلٌ ميسور كسهولة الكلام .

ولكنكَ بعد أن ترى آثار تطبيق هذه المعادلة في حياتك وواقعك، ستعلم يقيناً أنك قد وضعت يدك على أعظم سرٍّ من أسرار هذا الوجود . . سينفعكَ في دنياك وآخرتك .

وستعلم أنَّ العالم الذي تعيش فيه بكل ما يحمل من خير وشر وفرح وحزنٍ وآمال وآلام، إنما هو انعكاس لعالم مرسوم في ذهنك، يمكنكَ تغييره إذا شئتَ كما سنشرح ذلكَ بالتفصيل[٢] .

وستكونُ من القلّة من العلماء والحكماء والناجحين والمصلحين في هذا العالم. الذين فهموا هذه الحقيقة وتفاعلوا معها وانتفعوا بها .

٢ - رويَ من كلام محمد إقبال الشاعر الباكستاني قوله:
قلتُ يا رب هذا العالم لا يعجبني.. فقال لي: اهدمه وابنِ أفضل منه.

(٢)
ما هو الفكر؟

- أيُهَذا الشاكي وَما بِكَ داءٌ		كَيفَ تَغدو إِذا غَدَوتَ عَليلا
- إِنّ شَرّ الجُناةِ في الأَرضِ نَفسٌ		تَتَوَقّى قَبلَ الرَحيلِ الرَحيلا
- وَتَرى الشَوكَ في الوُرودِ وَتَعمى		أَن تَرى فَوقَها النَدى إِكليلا
- أَيُهَذا الشاكي وَما بِكَ داءٌ		كُن جَميلاً تَرَ الوُجودَ جَميلا

(ايليا أبو ماضي)

أبدأُ أولاً بتوضيح مصطلح الفكر لكيلا يختلط بتفسيرات أخرى لا أقصدها ولا أعنيها، وسأوضّحُ ما أعنيه بعبارةٍ فيها تفصيلٌ، كي أُزيلَ الابهام عن هذا المصطلح، وأحصره في المعنى الذي أُريده وأبحثه في هذا الكتاب.

(الفكرُ هو التصورُ الشامل الكلّي للعالم في عقل الانسان، والذي تُشكّله وترسُمُهُ في عقله مُدخلاتُ الحواس).

فكلُّ انسان له تصورٌ فريدٌ مرسومٌ في عقله لهذا العالم، يختلف بكلياته كما يختلفُ بتفاصيله وجزئياته عن أي انسان آخر، ولا يشابهُهُ ولن يشابههُ في هذا

التصور أحد من البشر. لا في زمنه ولا حتّى عبرَ التأريخ من سيدنا آدم الى يوم القيامة.

وهذا التصور الشامل الكلي للعالم وإن شئت أن تسميه الصورةَ الذهنية للعالم، يتركّبُ من أجزاء وتفصيلات تشملُ كل معتقدات الانسان الدينية والدنيوية كما تشملُ هذه التفصيلات قيمه ومعاييره الصحيحة والخاطئة ومشاعره وثقافته وكل ما يتعلق بحياته.

وهذا التصور الشامل الكلي للعالم هوَ الذي يقودُ أقوالَ الانسان وأفعاله، وبناءً على هذا التصور الشامل يُصدرُ الانسانُ أحكامه على الأشياء والأشخاص والحوادث، وبالتالي سيكون هذا التصور الشامل هو مرجعه في كلّ قراراته التي يتخذها بسيطة كانت أم معقدة.

وهذا التصور الكلي للعالم يتشكل بالتدريج عن طريق حواس الانسان، أي ما يراهُ وما يسمعهُ وما يُحسّهُ.

وبعبارةٍ أدق يتشكلُ عن طريقِ (تفسيرِهِ) لما يراهُ وما يسمعهُ وما يحسهُ.

فهذه الحواس هي منافذُ المعلومات لعقله. ولا بدَّ منها ليتعرَّف الانسان على ما حوله ومن حولهُ.

وفقدان إحدى الحواس يسبب للإنسان مشكلة كبيرة وثغرةً في معلوماته ومدركاته. ومع ذلك فإنَّ للعقل البشري ميزةً فريدةً وهي قدرتهُ على تعويضِ الحاسة التي يفقدها الانسان بتقوية الحواس الأخرى، أو يعوض الحاسة المفقودة عن طريق - التخيُّل- وهذا شيءٌ يتفردُ به العقل البشري، ولا مثيل له عند بقية المخلوقات.

ومن أطرفِ الشواهد على قدرة التخيّل هذه ما وردَ في تاريخنا الأدبي.. فقد رويَ أن أبلغ (تشبيهٍ) قالته العربُ صدَرَ عنْ شاعرٍ أعمى لم يرَ المشبّهَ ولا المشبّهَ به في حياته.

هذا الشاعر هو بشار بن برد في قوله:

كأن مُثَارَ النّقع فوق رؤوسنا   وأسيافَنا، ليلٌ تَهَاوَى كواكِبُه

فلمّا قيل له: ما قال أحدٌ أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قطّ ولا شيئاً فيها؟!

فقال: إن عدم النظر يُقَوّي ذكاءَ القلب، ويقطع عنه الشغلَ بما يُنْظَرُ إليه من الأشياء، فيتوفّر حِسّه، وتذكو قريحتُه.

وبناءً على تعريفنا السابق للفكر فأنَّ هناكَ عوالمَ مختلفة متعددة بعدد البشرِ الموجودين الآن، وبعددِ من كانوا في الماضي، ومن سيكونون في المستقبل.

والدليل على هذا الكلام، أنكَ بقليل من المراقبةِ والانتباه ستجدُ أنَّ الإنسان الصالح الذي يحبُّ فعل الخير، لديه في فكرِه تصورٌ عن العالم غير الانسان الطالح الذي يتلذّذ بالفساد في الأرض.. وكلاهما مقتنع وفرحٌ بعالمه.

وستجدُ لدى الطبيب الذي يفرح بإنقاذ روح الإنسان تصورٌ عن العالَم يختلف عن تصور القاتل الذي يفرح بإزهاق هذه الروح لنفس هذا العالَم.. وكلاهما مقتنعٌ بعالمه.

وتجدُ عندَ من يدعوا الى الأخلاق والحشمة تصورٌ للعالم يختلف عن الذي يدعوا للفجور والفواحش.. وكلاهما مقتنع بعالَمه.

وكذا ستجدُ صوراً مختلفةً للعالَم في فكرِ الكريم والبخيل والشجاع والجبان والعالِم والجاهل.. الخ. وكلُّ واحدٍ منهم مقتنع وفرح بعالمه المتشكّلِ في عقله.

هذا هو (الفكر) الذي أعنيه في كتابي هذا، ليكون مفهوم المصطلح واضحاً ولا يكون هناك لَبسٌ في مفهوم هذا المصطلح الذي أتكلم عنه.

وقد يعبرُ عنه آخرون بكلمة أخرى، ولكن كما قيل "لا مشاحّة في الاصطلاح"، وقد وضّحتُ قصدي بهذا المصطلح.

وزيادةً في التوضيح أيضاً.. أنا لا أريدُ بمفهوم الفكر في هذا الكتاب (المفهوم الثقافي) الشائع والذي يعني التأمل الفلسفي والخزين العلمي والأدبي والأيديولوجي، بل أريدُ به التصور الكلي للعالم والوجود، بما فيه من تفاصيل ومخلوقات وأحداث، وما المفهوم الثقافي للفكر إلاّ جزءٌ من الفكرِ الشاملِ الذي أعنيه.

لذلك عندما أتكلم عن الاهتمام بالفكر أولاً.. تكويناً وإصلاحاً وتغييراً.. فإنما أعني الاهتمامَ بمنظومة متكاملة من المعتقدات والقيم والمعايير والمفاهيم والمعلومات والخبرات والتجارب والمشاعر والسلوكيات الظاهرة والباطنة.. أي بكلّ ما يُفكّر فيه الانسان مهما كانت درجة علمه وثقافته.

وكذا الاهتمام بمدخلات هذه المنظومة الفكرية، والعمليات والمقارنات التي تجري فيها، ومخرجاتها ومآلاتها. **وكلها تُبحثُ وتُعالَجُ كحزمة واحدة لا تقبل التجزئة**، وهذه قاعدةٌ مهمةٌ جداً لا يجوز إغفالها.

لماذا لا تتقبل المنظومة الفكرية التجزئة؟

لنتخيل مثالاً يوضح الفكرة ويبسطها:

اذا أردت التجوال كسائحٍ في مدينة تزورها لأول مرة، وأنت لا تعرفها من قبلُ، واقتنيتَ خارطة للمباني والطرق، وكانت الخارطة جميلة وملونة ومفصلّة.

ولكن بعدما اشتريتها اكتشفتَ أنها لمدينة أخرى، ومع ذلك أقنعتَ نفسكَ، أو أقنعكَ آخرونَ بأنها مفيدة لك! .. فهل ستصل من خلالها الى الأمكنة التي تريد زيارتها؟

لن تصل أبداً الى المكان الذي تريده مهما كنت ذكياً، ومهما امتلكت من وسائل مادية ومعنوية، ومهما كان الدعم الذي يقدمه الآخرون لك.. والسبب واضحٌ لكل عاقل.. فأنتَ تسترشدُ بخارطةٍ خطأ من الأصل.

ولن تصل الى وجهتك أبداً حتى تستبدل الخارطة الخطأ (كلها) بخارطةٍ أخرى صحيحة لنفس المدينة التي أنت فيها، وتسير على هديها.

والخارطة هي مثالٌ للفكر.

وهنا تردُ صورةٌ أخرى.. ماذا لو كانت الخارطة لنفس المدينة لكنَّ فيها بعض الأخطاء؟ كأن تكون قديمة غير محدثة، أو مبسطة لا تحوي على تفاصيل كافية؟.

فيمكن في هذه الحالة أن نكتفي بإصلاح الأخطاء الموجودة فيها، بتحديث بياناتها، ولا حاجة لاستبدال الخارطة كلها إلا إذا كانت الأخطاء غالبةً وفاحشة، لأن الأصل بمجمله صحيح.

وكذا الفكر البشري.. فهو ليس معصوماً وقطعاً سيقعُ في الأخطاء، فيمكن التصحيح والتصويب باستمرار. أما إن كانت الأخطاءُ غالبةً وفاحشةً فلا مناصَ من استبدالهِ بالكامل، كاستبدال الخارطةِ التي هي لمدينة أخرى كلها بغير ترددٍ ولا أسف.

وفي كلتا الحالتين المذكورتين، فإنَّ إصلاح الفكر (الخارطة) يجب أن يكون شاملاً لكل الأخطاء، ولن يفيد الترقيع بإصلاح جزءٍ وإبقاءِ جزءٍ آخر على فسادهِ.. فثمارُ الفكر كثمارِ النباتات، ويكفي وجود ثمرة فاسدة واحدة كي تُفسدَ سلّة كاملة من الثمار الصالحة.

لذا أقولُ أن التعامل مع المنظومة الفكرية يجب ان يكون كُلاً لا يتجزأ..

والواقع المشاهد يؤكدُ انَّ الإصلاح الجزئي هو من أقبحِ البلايا التي ابتليت بها مجتمعاتنا، ونرى لها تطبيقات كثيرة نعيشها يومياً مع أنفسنا ومع الآخرين، ومعَ يقيننا بأن هذا الاصلاح الجزئي لم ولن يقدّمنا خطوةً الى الأمام إلا أننا مصرّون على

التمسك به وتكرار نفس الخطأ مئات المرات، والحصول على نفس النتيجة المؤسفة مئات المرات.. واليك بعض الأمثلة الشائعة فمنها مثلاً:

- التركيز على اصلاح العقيدة الدينية فقط دون التركيز على القيم والسلوكيات والتعامل مع الآخرين.. لا ينفع.

- وبالعكس.. التركيز على اصلاح القيم ومظاهر السلوك فقط دون الانتباه الى تصحيح العقيدة.. لا ينفع.

- التركيز على اصلاح الثقافة والعلوم الدينية والدنيوية دون أن نربّي عقلاً ناقداً يحلّل ويركبُ ويقبل ويرفض.. لا ينفع.

- التركيز على اصلاح العبادات وتطبيق الشريعة تطبيقاً متعسفاً دون النظر الى مآلاتهِ.. لا ينفع.

- التركيز في اصلاح نظام التعليم على الشهادات والدرجات العلمية والألقاب بغض النظر عن الانجاز الحقيقي والابتكار وخدمة المجتمع.. لا ينفع.

- التركيز على استهلاك مظاهر الحضارة وتقنياتها دون السعي للإنتاج والتصنيع الوطني وإضافةِ قيمة جديدة للعالم.. لا ينفع.

هذه بعض الأمثلة على الاصلاح الترقيعي الجزء الذي لا ينفع.

علينا أنْ ندرك أنَّ الفكر نظام متكامل كالساعة، يتعطّلُ إذا تعطل أصغرُ أجزائه كما إذا تعطلَّ أكبر أجزائِه سواءً بسواء.

وهنا أَلفِتُ انتباهكَ الى مسألةٍ دقيقةٍ أخرى.. وهي أن اصلاح الفكر لا يعني فقط تغيير الفكر السيء الى فكر حسن، أو تطوير الفكر الحسن الى فكرٍ أحسن. بل يعني أيضاً – **توجيه – هذا الفكر الحسن أو الأحسن الى وجهة صحيحة.**

وهذا التوجيه الى الوجهة الصحيحة يكونُ أحياناً هو العمل الأخطر والأصعب في عملية اصلاح الفكر.. لماذا؟

لأن أكبر الكوارث في تاريخ البشرية ارتكبها أناس سليمي النية والفكر (كمحتوى فقط) لكنهم أخطئوا الطريق والطريقة.. ومثل هؤلاء يكونون عادةً من أصعب الناس اقتناعاً بالتغيير وبمراجعة أفكارهم. لأنك كلما حاورتهم في أخطائهم واجهوك بحجّةٍ تبدو في الظاهر صحيحةً، ولكنها في الباطن فيها لَبسٌ كثير، ومع ذلك يعتقدون أنها هي الحق.

وهذه الحجة هي سلامة نيتهم وسلامة فكرهم الذي يحملونه (كمحتوى فقط)، ويغفلون عن وجهة هذه النية وتطبيقاتها، ويغفلون عن وجهةِ هذا الفكر وتطبيقاتهِ الى أين يقودهم؟

ويغفلون عن سؤال أنفسهم هذا السؤال الخطير:

- لماذا هم مع هذه النية الحسنة وسلامة الفكر قد خاضوا في المهالك واضاعوا دينهم ودنياهم؟!

وسنضرب لهذا مثلاً معروفاً مشهوراً وهو مشكلة تخلف المسلمين، وسنحللُ هذه المشكلة في الصفحات التالية، لنرى الى أين وصلت بنا المنظومة الفكرية السائدة في عقولنا اليوم عندما تناقش هذه المشكلة.

(٣)

المنظومة الفكرية ومشكلةُ تخلف المسلمين

- "إنّ اللّهَ عزّ وجلّ يُمْلِي لِلظّالِمِ، فإذا أخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْه، ثُمّ قَرَأَ وكَذلك أخْذُ رَبّكَ، إذا أخَذَ القُرَى وهي ظالِمَةٌ إنّ أخْذَهُ ألِيمٌ شَدِيدٌ."

(حديث شريف)

وإليكَ المثل الأشهر الذي لا يزال الناس فيه مختلفون:

- لماذا تخلف المسلمون عن ركب الحضارة وقد كانوا من أهلها وبُناتِها لقرونٍ مضت؟!

- وكيف فَسَّرت المنظومة الفكرية السائدة في عالمنا العربي والاسلامي مشكلةَ تخلف المسلمين؟

معلومٌ أنَّ منظومة القيم والعدالة والسلوك في الاسلام هي منظومةٌ لا يجادل في روعتها أحد من المسلمين، وحتى المنصفينَ من غير المسلمين.

ومعلومٌ أنَّ الشريعة الاسلامية كعبادات ومعاملات من أكثر الشرائع رقياً ومرونةً وقابلية على التطور ومواكبة التغيير.

وقد بنى المسلمون ضمن هذه المنظومة القيمية الاسلامية في زمن ما حضارة عالميةً سادت على حضارات ومساحات شاسعة من المعمورة، مع وجود دخنٍ ومخالفاتٍ كانت فيها . .

ومن أخطر هذه المخالفات كان الاستبداد في الحكم والذي بدأ مبكراً كما سنناقشه لاحقاً . .

ثمَّ اصابهم داء الأمم من قبلهم وهي (الغفلة والتغافل) عندما لم ينتبهوا لهذا الدخن وهذه المخالفات، أو انتبهوا لكنهم غضّوا الطرف عنها وتهاونوا فيها، كشأن كل الأمم التي تغرّها القوة والانتشار وتصرِفُها عن ملاحظةِ الآفات التي تسري فيها .

فكانت النتيجة الحتميةُ أنَّ هذه الحضارة أفَلَت وتراجعت وتخلفت عن ركب الأمم الأخرى والتي كانت تنفض الغبار عنها وتصحوا في بقاع أخرى من العالم. حتى أصبح المسلمون اليوم من أبعد الناس انتفاعاً من هذه المنظومة الاسلامية الفريدة ! !

بل سبقتهم الأمم الأخرى في تطبيق الكثير من القيم السامية على شعوبها، والتي أمر بها الاسلامُ أتباعَهُ من قبلُ.

ويبقى السؤال الحائر: ما هي هذه المخالفات القاتلة؟ وعن ماذا غفلت الأمة؟ وما الذي ارتكبته حتى وصلت الى هذا الحال؟

لقد كُتِبَت المئات من الكتب عن أسباب تخلف المسلمين هذا، وسُطّرت فيها الحلول المثالية والرائعة عن كيفية حلّ هذا الاشكال، وكيفية تجاوز هذا التخلف، واقتُبسَت بعضُ هذه الحلول من المنظومة الاسلامية نفسها، والبعض الآخر من خارجها .

وتبنّت هذه الحلول دولٌ وجمعيات وجماعات وأحزاب دينية وقومية وعلمانية وشيوعية، وقاتلت من أجلها وضحَّت بالنفس والمال. . . ولكن لم يتحقق شيء على أرض الواقع، ولم نتقدم خطوة الى الأمام. بل ازداد التخلف تخلفاً وازداد المنهزمون انهزاماً، حتى وصلنا الى هذا الحال المزري في القرن الواحد والعشرين.

حيثُ أحتُلّتْ دول اسلاميةٌ بأكملها بعد استقلال، وخُرّبت أخرى بعد عَمار، وهُجّر ملايين المسلمينَ من ديارهم بعد استقرار.

وأضف الى هذه المصائب مصيبة أدهى وأمر، وهي أنَّ هذه المصائب حصلَت بمساهمةٍ خبيثةٍ من حكامِ المسلمين أنفسهم ضدَّ بعضهم البعض[٣].. واستمر الحال على هذا المنوال، فلا زال بأسنا بيننا شديداً لا يحول ولا يزول.

فأين الخلل إذن؟!

إن قلتَ أن الخلل في تطبيق الاسلام.. فأغلب المسلمين اليوم سيقولون لك إنهم يطبّقون الاسلام، بل ويتشددون في تطبيقه.. ومع ذلك تجدُ الذين يعتقدون بأنهم يطبقون الاسلام قد أساءوا اليه والى أنفسهم أكثر مما أساء اليهم أعدائهم!!

وإن قلت أنَّ الخلل في الفهم[٤].. ستعترض عليك الجماعات والأحزاب الاسلامية، سواء كانت سلفية أم صوفية أم من جماعات الاسلام السياسي (سنة وشيعة)، وحتى الأحزاب القومية والعلمانية وو...الخ، وتؤكد لك كل فرقةٍ انها تحمل الفهم الصحيح. وكلُّ حزب بما لديهم فرحون.

٣ - وهذه الرذائل التي يرتكبها هؤلاءِ الحكام ليست جديدة، وليست سابقة حدثت في عصرنا لأول مرة، بل سبقهم فيها حكام دول الطوائف وأضاعوا الأندلس بعد أن عمّرها أسلافهم.

٤ - وأنا ممن يؤيدون هذا الرأي، وأزعم أيضاً أن هناكَ خللاً في الفهم.. وقد كتبتُ مقالات عدة كنت أختمها بهذه العبارة (الفهم هو الحل).. ولكن كي نصل الى الفهم الصحيح لا بد من اصلاح النظام الفكري ابتداءً، وهو الذي سيوصلنا لهذا الفهم الصحيح. وهذا ما سطرتُ هذا الكتاب لأجله، فالإنسان بلا نظام فكري سليم لن يصل للفهم الصحيح، وبالتالي لن يَقبل أبداً أن يُراجع فكره أو يُتهمَ في فهمه.

أما حجّة مؤامرات الأعداء علينا والتي تسمعُها من الجميع بمناسبة ودون مناسبة، فهي حُجّة مستهلكة واهية.. لأن الحياة كلها قائمة على الصراع منذ خَلَقَ الله تعالى الانسان. ولا زالتِ الأمم يمكُر بعضها ببعض، ولم يتوقف مكر الأعداء منذ زمن النبوة، ولن يتوقف الى يوم القيامة.

وإن قلت أن المشكلة هي في تبعيتنا للغرب وانبهارنا به وتقليدنا له في الصالح والطالح، سيثور عليك المستغربون ويتهمونك بالتخلف وعدم مواكبة العصر، وسيقولون لك هذا طريق سلكه الآخرون ونجحوا فلم لا نسلكه نحنُ؟

فلم يبق لدينا إلا أن نُشكّكَ ونبحث في الفكر نفسه الذي يتشكل في عقولنا ويقود حياتنا، كلّه بالإجمال والتفصيل.. موضوعاً وتصورات وآليات.. أي بنظام التفكير كله.. كيف يتشكل؟ وكيف يعمل؟ وما هي الأمراض التي تصيبه فتشوهه وتجعله ينحرف عن هدفه، وأحياناً يؤدي عكس المطلوب؟

لأنّ نظام الأفكار إذا كان منحرفاً مريضاً وآلياته غير منضبطة، فلا يصحّ معه شيءٌ ولو كان الدين الخاتَم بكل قيمه ومثله السامية.

وتجنُّبُ المشكلة الحقيقية لا يؤدي فقط الى أن تبقى هذه المشكلة دون حل، بل سيجعل الأمور أسوأ بكثير وسيخلق مشاكل جديدة، وهذا ما حصل ويحصل معنا عندما نتجنب البحث والحديث عن معضلة الفكر الذي يقود كل حياتنا .

مواجهة المشكلة والاعتراف بوجودها أولاً هو بداية الطريق نحو الحل، وبالتزامن مع هذه المواجهة والاعتراف يجب أن نرفع كل الأسوار التي أحطنا بها أفكارنا وحصنّاها من النقد والتقييم والتقويم، ليتسنى لنا فحصها بوضوح وهدوء ودون انفعالات.

وبالتالي سنخرج من المأزق المتأصّل في حياتنا والذي لا زلنا نعاني منه، وهو أن نبقى نعيشَ هذا الشعور الغامض بوجود مشكلة ما، وكلما أردنا أن نوصّفَ هذه المشكلة نستخدم توصيفات عامة هلاميةً تزيد الموضوع إبهاماً، ثم نضع لها حلولاً أشد عموميةً وأكثر هلاميةً.

وعندما نطبقُ هذه الحلول الهلامية نفشل ثم نعيدها مراراً وتكراراً ونفشل، ونبقى ندور في هذه الحلقة المفرغة من الفشل والتي استهلكت أعمارنا، وكل ذلك حتماً لن يوصلنا الى نتيجة.

وعودٌ على بدء الى المثال الذي اخترناه عن المنظومة الفكريةِ وظاهرة تخلف المسلمين. . والتي أُشَبهُها برجل يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والأنعام والحرث، ومع ذلك تراه يدور على المساجد ليتسوّل!! فترى الناس تزدريه وتهينه وتذم عقله المتخلف. فلا هو يتنعم بما يملك ويحافظ على كرامته، ولا هو فقير بحق فيتعاطف الناس معه.

لقد كنا نسمع ونقرأ طوال العقود السابقة توصيفات عدّة لظاهرة تخلف المسلمينَ تصدرُ من جانبين متناقضين على طول الخط، وهما الاسلاميون والعلمانيون. وقد اخترتهما كعينتين تحملان الفكر السائد في عالمنا العربي والاسلامي.

واختياري لهاتين الفئتين دون غيرهما لم يكن بسبب أنهما الفئتان الوحيدتان اللتان ناقشتا هذا الموضوع، فهناك غيرهما له رأي وطروحات أخرى. . ولكني اخترتهما لأنهما الأعلى صوتاً في المجتمع العربي والإسلامي، ولأنهما أيضاً لهما طروحات وشعارات واضحة ومتكررة، ولأنهما كما ذكرتُ على طرفي نقيض.

ومع ذلك ورغم تناقضهما في كل شيء تقريباً فهما محكومان بنفس نظام التفكير الذي لا يؤدي الى نتيجة كما سنُبيّن. وهذا يثبت لنا مرة أخرى مدى أهمية

وخطورة الفكر الذي يسود ويتحكم في المجتمع ويهيمن حتى على الأطراف المتناقضة.

(٤)

أولاً: الإسلاميون

وأعني بالإسلاميين حملة الأيديولوجيات من المسلمين كالسلفية والصوفية وإن لم ينتموا الى أحزاب معلومة.. ومن باب أولى أعني الآخرين المنتمين لأحزاب وجماعات اسلامية. أما المسلمون العاديون من عامة المجتمع فلا يشملهم هذا الكلام، لأن لهم آراءً أخرى بعددهم.

ولا بأسَ بالتذكير مرة أخرى أني أتكلم عن (منظومة فكرية) تحملها هذه الشريحة من المجتمع وليس كلامي عن الاسلام نفسه.

والاسلاميون عادة ما يلخصون مشكلة تخلف المسلمين بأنها حصلت بسبب:

- عدم فهم الاسلام
- عدم الالتزام بشرع الله تعالى
- الخطأ في تطبيق هذا الشرع

- مؤامرات الأعداء

والحل عندهم هو:

- ضرورة العودة الى دين الله تعالى
- الحكم بما أنزل الله تعالى
- مقاومة مؤامرات الأعداء باللسان وبالسنان
- إحياءُ جهاد الطلب[٥]

وهذه شعارات[٦] جميلة وصحيحة في الإجمال، لكن مشكلتها تكمنُ في التفاصيل!! فهناك مئات الأسئلة التي لا جواب لها إذا دخلنا في التفاصيل، أو يوجد لها أجوبة لكنها متعارضة لا تلتقي أبداً.

لذلك عندما طُبِّقتْ هذه الشعارات على واقع الحياة المعاصر واصطدمت بالتفاصيل كانَ الفشل هو النتيجة في كل مرّة.

---

٥ - المقصود بجهاد الطلب أن نبادرَ غير المسلمين بالقتال لنشر الدين، ولو كانوا من غير الأعداء المحاربين، تقليداً لحركة الفتوحات في الماضي. وكلاً من السنة والشيعة يحملان نفس الفكر وما تصدير الثورة الخمينية في عهد ولاية الفقيه إلا مظهراً واضحاً لهذا الفكر.

٦ - وسميتها شعارات لأن من يحملونها ويدْعون اليها لا زالوا يمارسون دور الواعظ المتحكّم، وليس لديهم خطط جادة تفصيلية لتطبيق ما يدعون اليه على أرض الواقع.. فهم ينتظرون معجزة تضعهم في سدة الحكم، ثم معجزةٌ أخرى تجعلُ الناس يدينونَ لهم بالطاعة والولاء ولا يعارضهم أحد، ثم معجزة ثالثة تمنع الأعداء من التآمر عليهم. وبعد تحقق هذه المعجزات الثلاث سيجرّبون ما في رؤوسهم من شعارات على خلق الله، وهم مع ذلك لا يضمنون نجاحها.. لأن نظام الفكر الذي يحملونه مبني على قاعدة (أنت مكلف بالعمل فقط لا بالنتائج، فالنتائج بيد الله تعالى وحده)، وهكذا يُعفون أنفسهم من تحمل مسؤولية أي فشل، وهكذا أيضاً ضاعَ دم الاسلام على يد هؤلاء بين القبائل.

لذلك ستبقى أكبر مشكلة تواجهنا في هذا التشخيص وفي الحلول التي وضعت لهُ أنها عامة مبهمة وغير محددة ولها أكثر من تفسير.

والدليل على عموميتها وإبهامها أنَّ كل مجتمع يفهمها بصورة مغايرة للمجتمع الآخر (ضمن العالم الاسلامي).. وكل فرقة اسلامية تفسرها بشكل مغاير للفرق الأخرى (ضمن الدولة الواحدة)، والكلُّ يدّعي أنه قد وصلَ للحق والحقيقة.

ولا يمكنك أبداً أن تجمع بين هذه الفرق الاسلامية وأن توحّدَ فهمها وتفسيرها لهذه العبارات، ومن باب أولى لن تستطيع أن تجمع بين المجتمعات المختلفة في الفهم، وأيضاً لا يمكنك أبداً أن توفّقَ بين الحلول التي وضعها هؤلاء وأولئك.

ولكي نتكلم عن واقع مشاهد، وأمثلة من زماننا.. فإن بعض الدول قد حَكَمتْ فعلاً بأحكام الشريعة وتبنّت الاسلام نظرياً وعملياً، كالمملكة السعودية والسودان وأفغانستان وإيران.. ودون الدخول في جدل عقيم حول نسبةِ نجاحاتها وإخفاقاتها نسأل هذا السؤال:

- أين هذه الدول اليوم على خارطة العالم حضارياً وإنسانياً وسياسياً؟[٧]

---

٧ - وقد يحلو للبعض الجدل بأن هذه الدول طبّقت الاسلام تطبيقاً مشوهاً.. ونرُدُّ على هذا الاعتراض بأن هذه الدول طبقت ما تعتقد يقيناً أنه الاسلام وطبّقت فهمها الخاص للإسلام الذي تعتقد أنه الحق وأنه الفهم الأصح وأن ما سواه هو الباطل.. وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه في كلامنا من الاختلاف في الفكر والفهم، مع أن الدين واحد.

وآخر الدول التي تحَكّمت فيها الأحزاب الاسلامية (سنية وشيعية) هو العراق. بعد أن جاءَ المحتل الأمريكي بهذه الأحزاب ومهّد لها، وهي بدورها لم تجد غضاضةً في التعامل معه لاحتلال البلد ولم تجد أدنى مخالفة شرعيةٍ في عملها هذا طالما أنها ستصل عن طريقه الى السلطة!!.

فتأمل الى اين وصل حال العراق اليوم، ولا يزال مستقبله مظلماً مجهولاً.. ثم تأمل كثيراً في الفكر الذي يحمله مثل هؤلاء الاسلاميون بمختلف فرقهم ومذاهبهم، وما ترتّبَ عليه من أفعال ارتكبوها ليصلوا الى الحكم فقط! ثمَّ ما الذي فعلوه بعد استلامهم للحكم، وإلى أين انحدر مثلُ هذا الفكر بهم وببلادهم.

وأيضاً لاحظ معي أن هذه الدول التي ذكرناها متنوعة غير متشابهة في أحوالها، فمنها الغنية ومنها الفقيرة ومنها متوسطة الحال.. ومنها السنية ومنها الشيعية.. ونظم حكمها بين الملكية والرئاسية وولاية الفقيه والإمارة الاسلامية.. وقومياتها تتنوع فمنها عربٌ ومنها عجم.

ومع هذا التنوع فإنَّ الكل نهايتهم واحدة وهي الفشل في بناء الحضارة، وتدعيم القيم الانسانية، وإضافة قيمة لهذه الحياة. ويكفي كمؤشر واحدٍ من مئات المؤشرات على فشلهم أن مواطنيهم يحلمون بالهجرة الى بلاد الغرب (بلاد الكفر

بحسب توصيفهم) ليتمتعوا فقط بإنسانيتهم التي فقدوها في بلاد (الاسلام). بل يفخرُ مواطنهم إذا حصل على جنسية أمريكية أو اوربية، لأنه سيُعامل معاملة خاصة إذا زار بلده أو عاد اليها!!

وقطعاً لا أعني بكلامي أنَّ تطبيق الشريعة هو السبب في هذا التخلف، ولكنه في نفس الوقت ليس هو الحل (الوحيد) لهذا التخلف. لأن تشخيص المشكلة بالأصل تشخيصٌ خاطئ. فتطبيق الشريعة جزء من الحل، لأن الشريعةَ جزء من نظام الفكر عند المسلم وليست هي الفكر كله.

فهناك أمور أخرى كثيرة ومهمةٌ غابت عن فكر المسلمين كما غاب تطبيق الشريعة، وما لم نهتم بها ونركزَ عليها، سيكون تطبيق الشريعة لوحدهِ كارثة تشوّه الاسلام وتؤذي المسلمين، والمثال الواضح على ذلك تجربة (داعش) وما فعلته بدينِ الناس وبدنياهم.

فأحد الاعتبارات في هذا الباب على سبيل المثل وليس الحصر، أنَّ ما هو أهمُّ من تطبيق الشريعة، هو نظام الحكم الذي يطبّق هذه الشريعة، والحاكم الذي يطبّق هذه الشريعة.

والغريب أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم نبّهَ الأمة وحذرها في حديث صريح واضح أنَّ الحكم الراشد الصالح المصلح سيكون أول شيء يُنقضُ في الاسلام، فقال: "لَتُنتَقَضَنَّ عُرى الإسلامِ عُروةً عُروةً، فكلَّما انتَقَضَت عُروةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بالتي تليها، فأَوّلُهنَّ نَقضاً الحُكمُ، وآخِرُهنَّ الصَّلاةُ".

وانتبه هنا الى هذه المفارقة.. فالصلاة التي ستكون آخر عروة ستنقض، هي أكثر عبادة يهتم بها المسلمون اليوم، ويؤلفون فيها المطولات.[٨]

بينما الحكم وهو الذي سيكون أول عروة تُنقض، والذي فيه سياسة الدين والدنيا، وصلاحُ العباد والبلاد، وصلاح العبادة نفسها، لم يعطه المسلمون الاهتمام الكافي والمكافئُ لخطورته.

والحكم ليس مجرد تسلط فردٍ أو فئةٍ بالقوة والقهر على شعب ما، كما عهدناه في بلادنا وفي تاريخنا.. بل هو نظام متكامل فيه صفاتٌ مطلوبةٌ للحاكم وللحكومة، وفيه قيمٌ أخلاقيةٌ، وفيه مسؤوليات انسانية، وفيه الحفاظ على مصالح الناس ودنياهم ومعاشهم، وفيه من ضِمن ما فيه تطبيق الشريعة.

٨ ـ الصلاة ركن من أركان الدين، لكنها ممارسة فردية لا تتعدى صاحبها.. أما الحكم فهو ممارسة جماعية يتعدى نفعها وضررها الى الملايين من البشر.

والغريب أنَّ الباحثين في ظاهرة تخلف المسلمين (من الاسلاميين)، لا يناقشون مناقشةً جادةً قضية الحكم والاستبداد عبر تاريخنا، وما جرّه على الأمة من ويلات، ولم ينتبهوا لخطورته، أو انتبهوا وسكتوا رغبةً ورهبةً ولم يحركوا ساكناً، رغم تنبيهِ النبي صلى الله عليه وسلم الصريح الواضح، الى أنه أوّلُ (عروة) من عرى الاسلام ستُنقض.

لماذا؟!

لأن نظام الفكر الذي ساد في الأمة مبكراً بعد الخلافة الراشدة لا يسمح لهؤلاء بمناقشة السلطان.

نعم هم مستعدون لتحبير آلاف الصفحات في أحكام الطهارة والصلاة والبيوع وغيرها من أبواب الفقه، لكنهم غير مستعدّين لكتابة وريقات في الأحكام التي تضبط السلطان عن غيّهِ وطغيانه، وتستنكر استبداده وفجوره.(٩)

ولذلك تجد جفافاً عجيباً في الفكر الاسلامي في ما يتعلق بالسياسة والحكم ونظامه، وفي نقد الحاكم والتصريح بإنكار أفعالهِ.. بل لا تجد مثل هذه المباحث في

٩ ـ نعم ألفت كتب كالأحكام السلطانية للماوردي وبدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق وكتب أخرى تشبهها.. لكنها كانت أشبه بالكتب التوضيحية لوظيفة الحاكم المثالي، ولم يكن فيها نقد وتحليل لما اقترفه الحكام من مخالفات دينية ودنيوية، ولا تصحيح لأعمالهم، ولا حتى مجرد توصيف لتلك الأعمال.

كتب الفقه لكل المذاهب والطوائف، وقد تقرأ جملاً وكلمات هنا وهناك قيلت على استحياء، أمّا الكلام الصريح فلا.

وهكذا تُوُدّعَ من هذه الأمة.. ليس لأنها لم تطبق الشريعة، فقد طبقتها لقرون في حياة الناس، بل لأنها هابت أن تقول للظالم يا ظالم.. وهذا أيضاً صريح واضح في كلام النبوة.. فقد قال صلى الله عليه وسلم:

"إذا هابت أمّتي أنَّ تقولُ للظَّالِم يا ظالِمُ فقد تُودِّعَ منهم"[١٠]

ولكن كل هذا غاب عن الفكر في عقول المسلمين ولا زال.

وقد يقول قائل: كيف تدّعي كل ما سبق وقد ظهر في تاريخنا من اعترض على الحاكم بل وقاتله بسبب ظلمه وجوره؟.. وكيف تقول أن هناك جفافاً في الفكر في هذا المجال وقد ظهر في عصرنا من يدعوا الى إعادة حكم الإسلام. وأُلفت في هذا كتب، ووُضعت تنظيرات وأفكار، ومن أهمها فكرة (الحاكمية)؟

١٠ - قد يعترض البعضُ بأن هذا الحديث ضعيف.. ومع ذلك فإن واقع الأمةِ بل واقع الأمم كلها يشهد بصحة معناه.. فلا يسود ظالمٌ في أمةٍ إلا أهلكها وأفسدها وجعل أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون.

وهنا من الضروري أن أنبه لأمرين مهمين:

الأمر الأول: يجب عدم الخلط بين ما حصل من معارضةٍ وخروج على الخلفاء بالسيف وبين - الفكر- المنحرف عند الحاكم والمحكوم في مسألة الحكم وهو ما أتحدثُ عنه.

فقد خرج كثير من المسلمين المعارضين بالسيف على خلفاء بني أمية مثلاً.. ولكن ماذا كانت النتيجة في نهاية المطاف؟! سقطت دولة بني امية وخلفتها دولة بني العباس ولم يتغير شيء، بل ازداد الاستبداد والبطش أضعافاً مضاعفة، ويكفي أن أول خليفة افتَتَح هذه الدولة لُقّبَ (بالسّفاح).

وهذا يدل على أن الفكر الذي كان يقودُ الأمويين هو نفسُ الفكر الذي حملهُ العباسيون فيما بعدُ ولم يتغير.. فقط تغيرت الشخصياتُ والأسماء. وبقي فكر الاستبداد كما هو.. بل ترسّخ وازداد.

وتكَرّر هذا الأمر مع دولة بني العباس، وما أعقبها من دول، واستمر الى يومنا هذا.

الأمر الثاني: عدم الخلط ايضاً بين الدعوة الى تصحيح الفكر الذي يحمله الحاكم والمحكوم، وبين الدعوة الى فكرة (الحاكمية)، والتي كانَ أول من أثارها أبو الأعلى المودودي رحمه الله (١٩٠٣-١٩٧٩) في النصف الأول من القرن العشرين.

ثمَّ رسّخها من بعدُ سيد قطب رحمه الله (١٩٠٦-١٩٦٦) وأعطاها صفة العالمية بأسلوبه الأدبي الفذّ، حتى أصبحت مرجعاً فكرياً لكل الجماعات التكفيرية في العالم الاسلامي، بغَضّ النظر عن نيّة المودودي وسيّد، هل كانا يقصدان ذلك أم لا، فلا زال في هذا الأمر خلاف، وليس هذا موضوعنا.

ومن الضروري عدم الخلط بين الأمرين، أي بين فكرة الحاكمية وبينَ تصحيح الفكر الذي أناقشه في هذا الكتاب. لأنَّ مآل فكرة الحاكمية كما طُرحتْ هو ترسيخ الاستبداد والانغلاق ونبذ المجتمع المخالف والاستعلاء عليه. بل إنَّ هذه الفكرة هي استمرار للانحراف الفكري في مسألة الحكم، ولكن بعبارات وصبغة عصرية. (١١)

١١ ـ وقد ردَّ على فكرة الحاكمية ومآلاتها الخطيرة كثيرٌ من العلماء، منهم علاّمة الهند وحيد الدين خان ومنهم العلامة ابو الحسن الندوي ومنهم الشيخ يوسف القرضاوي.

وسأضرب لك مثلاً أخيراً على جفاف الفكر في هذا الميدان . .

كتب الشيخ الأزهري والقاضي الشرعي علي عبد الرازق[١٢] (١٨٨٧-١٩٦٦) كتابه (الاسلام وأصول الحكم) . . والذي زعمَ فيه ان هناك فرقاً بين النبوة والملك، وأنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم كان نبياً رسولاً ولم يكن ملكاً، ولم يؤسس دولةً بالمعنى المتعارف عليه في عصرنا، وأن الخلافة ليست منصباً دينياً، وليست ضرورةً لنا، ويمكن أن يأخذ المسلمون بأي نوع من أنواع الحكم العصري ولا غضاضة.[١٣]

وطُبعَ الكتاب عام ١٩٢٥، فقامت الدنيا عليه ولم تقعد، وحاكَمَهُ الأزهر وسحب منه شهادة العالمية، ومُنع الكتاب.

ولكن الشيخ علي عبد الرازق بقي مصراً على ما سطره في كتابه ولم يتراجع عنه حتى توفي رحمه الله.

---

١٢ - ولد الشيخ علي عبد الرازق عام ١٨٨٧م. حفظ القرآن صغيراً والتحق بالأزهر، وحين افتتحت الجامعة الأهلية عام ١٩٠٨ التحق بها دون أن يترك دراسته الأزهرية فجمع بين الاطلاع على العلوم الدينية والمدنية. تخرج من الأزهر عام ١٩١٢ وحصل على شهادة العالمية. عين عام ١٩١٥ قاضياً شرعياً، وحاضر في طلبة الدكتوراه بجامعة القاهرة عشرين عاماً في مصادر الفقه الاسلامي. فُصل من عمله بعد المحكمة التأديبية التي عقدها له الأزهر على كتابه المذكور، فخرج بمقتضى القرار من (زمرة العلماء)، لكن حين تولى أخوه الشيخ مصطفى عبد الرازق مشيخة الأزهر أعاده الى موقعه. عين وزيراً للأوقاف عام ١٩٤٨ لسنة واحدة، كما شغل عضوية مجلس النواب، ومجلس الشيوخ، وعين عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة. توفي في ٢٣ سبتمبر ١٩٦٦.

١٣ - هذا الاختصار لا يغني عن قراءة الكتاب، فقراءته ضرورة لكل من يهمه الأمر.

نعم.. لقد كان طرحه في الكتاب صادماً وجديداً، لم تألفه الأسماع ولم تَخُض فيه العقول من قبلُ، ولكن الجفاف الفكري الموروث في عصره كانَ هو السبب في ردّة الفعل القاسية عليه.

وكأنَّ المؤلف كان يُدرك ما سيجرُّه عليه نشر هذا الكتاب من اتهامٍ بالضَّلال والكفر من بعض مشايخ عصره ممن ردّوا عليه، فافتتح كتابه بهذه الكلمات:

" أشهد أن لا إله إلا الله، ولا أعبد إلا إياه، ولا أخشى أحداً سواه. له القوة والعزة، وما سواه ضعيف ذليل، وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو حسبي ونعم الوكيل. وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً. صلى الله وملائكته عليه وسلموا تسليماً كثيراً. "(١٤)

وقدر الله تعالى لهذا الكتاب أن يكون بعدَ ذلك اشهر كتاب ألف في القرن العشرين وإلى يومنا هذا في موضوعهِ.. فقد كان رائداً في موضوعه وفتح باباً مهماً للبحث والنقاش لا زال مستمراً الى يومنا هذا.

وبعد عشرات السنين من كتابته، وعشرات الكتب والمقالات التي حُبّرتْ في الردّ عليه، عاد الإسلاميون ليرددوا اليوم كثيراً مما قاله الشيخ علي عبد الرازق منذ قرنٍ مضى، بل ويتبنّونه قولاً وعملاً.

١٤ - الاسلام وأصول الحكم - علي عبد الرازق - ص٣

ولكن ندرة الانصاف في عالمنا العربي تمنعهم من الاعتراف بسبق هذا الرجل فيما طرح من أفكار، وتمنعهم من إرجاع الفضل اليه فيما يؤمنون به اليوم من فكرٍ في مجال السياسة والحكم.

وهذا حال كلَّ مفكر يسبق عصرهُ.. يعارضهُ الناس ويؤذونه بالقول والعمل، وبعد أن يموت، يعودون لما قاله من قبلُ..

ولكن عودتهم غالباً ما تكون "بعد خراب البصرة".

(٥)
ثانياً: العلمانيون

هناكَ توصيف آخر لمشكلة تخلف المسلمين تصدر من قبل العلمانيين.

ولكي لا نقع في فخ المصطلح فإني أعني بالعلمانيين كل الذين يَدْعونَ الى فصل الدين عن الدولة والمجتمع بالكامل[١٥]، وإبقائه مجرد شعائر تؤدى بصورة شخصية داخل مكان العبادة حصراً، وكذا من يسمّون أنفسهم بالمتنورين أو دعاة التنوير، والذين اصطبغوا بصبغة سطحية رقيقة من أفكار الغرب.

توصيف العلمانيين لمشكلة التخلف أنها تتلخص في:

- الدين والتراث عموماً.
- التخلف الثقافي والعلمي عن الغرب.

---

١٥ ـ قد تسمع من بعض العلمانيين أنهم ليس لديهم مشكلة مع الدين وأنهم متدينون، وهم يريدون فقط فصل الدين عن الدولة. فتكون الدولة حسب مقولاتهم (مدنية) لا دينية. وهذا الكلام هو في الحقيقة محاولة فاشلة لدمج العلمانية بمفهومها الغربي مع بقائهم ملتزمين بهويتهم الاسلامية.. ومثل هذا الطرح يثير الكثير من المشاكل والتساؤلات التي لا يستطيعون تجاوزها بالعبارات البلاغية وتلوين الكلمات كما يفعلون. فهي صورة هلامية لم ينجحوا حتى الآن في وضع حدود وتعريفات وتوصيف لها. ولم ينجح أحد منهم ممن وصل الى السلطة في تطبيقها.

- عدم اتباع الغرب بما أخذ به من أسباب الحداثة والحضارة، والتي سار بها وعليها .

والحل عندهم:

- أن تقطع صلتك بماضيك وتراثك الديني والثقافي، وتلحقَ بالغرب بخيره وشره.(١٦)

- ضرورة تجديد الدين ! !

وسنناقش هاذين الحلّين لأنهما في النهاية يمثّلان (فكراً) يقود هذا الصنف من الناس الى ما يظنّون أنه الحق والصواب.

أما الحل الأول. .

فبدلاً من أن يرسم هؤلاء طريقاً واضحاً للتقدم وبناء الأوطان (على افتراض أنهم يمتلكون هذا التصور) جعلوا هدفهم الأول إن لم يكن الأوحد هو محاربة الدين واستفزاز مشاعر الناس بالهجوم على مقدساتهم ورموزهم وتراثهم، واشعال معارك تافهة عبر الصحف والكتب والفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي لا مبرر لها ولا فائدة منها، ولا يمكنك أن تفهم منها - مهما أحسنت

١٦ - بعض العلمانيين يقول هذا الكلام صراحة.. وآخرون لا يصرّحون بهذا بل يستعملون عبارات تحتمل أكثر من تفسير، ولكن مآلاتها في النهاية تؤدي لنفس الكلام الذي ذكرناه.

الظن- أن هؤلاء يسعون لبناء حضارة، بل كل جهدهم منصب على هدم الدين والتراث والمقدسات بكلام لا يحمل سمات البحث العلمي ولا التجرد ولا الانصاف.

فتراهم يسعون للتنقيب في التأريخ عن مغالطات وأخبار ويضربون بعضها ببعض، فقط ليثبتوا أنَّ الاسلام هو كباقي الأديان (أفيون للشعوب) وأنه لا خلاص من التخلف إلا بالخلاص من ربقة هذا الدين، عقيدة وشريعة. ويحاولون إلباس كلامهم ثوب البحث العلمي والتحقيق وهم ابعد ما يكونون عن ذلك.

وأخطر ما في طرحهم هو تسفيه كلام العلماء السابقين بالجملة وبدون اي تحفظ. وحجتهم التي يتقربون بها للناس ويخففون بها شناعة فعلهم، أنَّ كلامَ العلماء السابقين إنما هو تفسير بشري للنصِّ المقدس، وأنهم يحترمون النصَّ المقدس ولا ينتقدونه، وإن نقدهم يقتصر فقط على التفسير البشري له. لأنَّ الذين يفسرون النصّ إنما هم بشر يصيبون ويخطئون، وهم رجال ونحن رجال، ويحق لنا أن نجتهد في تفسير النص كما اجتهدوا.

وهؤلاء يتجاوزون قاعدةً مهمة يعرفها حتى الإنسان الأميُّ البسيط وهي أنك لكي تنتقد علماً ما يجب أن تكون من أهله، عالماً بمصادره وموارده متقناً له متخصصاً فيه. وإلّا جاز لكل من يقرأ في كتب الطب والمجلات الطبية أن يعترض

ويصحح للأطباء الذين أفنوا أعمارهم في تخصصاتهم.. ولجاز أيضاً لكل من يقرأ في كتب الهندسة ومجلاتها أن يشرف على تصميم وبناء الأبراج ويصحّحَ للمعمار المتخصص فيها !. وهذا ما لا يقوله أو يقرُّه عاقل ولو كان أمّياً.. ولكن هذا بالضبط ما يفعله العلمانيون مع الدّين بكل مكوناته عقيدة وشريعة.

أليس الدّين بتفاصيله الدقيقة واستنباطاته وتفسيراته علماً كباقي العلوم، يُفني فيه الرجال أعمارهم؟ ولا يجوز لغير المتخصص فيه أن يتكلم بما لا يعلم؟.

أم أن عدم وجود محاسبة قانونية على مدّعي المعرفة بالدين والشريعة كما توجد محاسبة قانونية على مدعي الطب والهندسة هو الذي يعطي الجرأةَ لهؤلاء للخوض فيما لا يعلمون؟

وهل تخريبُ عقائد الناس في الدنيا ومآلهم في الآخرة أقل ضرراً من التخريب الذي يسببه الجاهل بالطب والهندسة؟

وبسبب هذا التصرف السفيه تكون ردّة الفعل من المجتمع على هؤلاء العلمانيين بنفس قوة فعلهم وأحياناً تكون أقسى وأشد بمراحل.. لأن الانسان مهما كان التزامه الديني بسيطاً لا يرضى أن يمسَّ أحد معتقداته بسوء أو أن يسخر

منها . لذلك تجد أغلبَ هؤلاء العلمانيين دائماً ما يكونون مصدراً للصراع والفتنة بغبائهم وسوء أدائهم.

أما الحل الثاني والذي يجدون فيه مرتعاً واسعاً فهو فكرة تجديد الدين.

وانتبه لهذا المصطلح.. فهم غالباً لا يستخدمون مصطلح تجديد الفكر عموماً، بل يركزون على مصطلح تجديد الدين!!

وقد يستشهدون بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللَّهَ يبعثُ لِهَذِهِ الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يجدِّدُ لَها دينَها) ولكنهم لا يفهمون من هذا الحديث ما فهمه العلماء أنَّ التجديد هو إظهار ما اندثر من شعائر الدين، أو تصحيح انحرافات الناس في عبادتهم، أو الاجتهاد في الوقائع التي استحدثت ولم تكن موجودة في الماضي

كلاّ..

إنهم يريدون من تجديد الدين إلغاء أحكام، وتغيير أحكام أخرى، والتحرر من كل ما يقيدهم من عبادات ومعاملات وقيم وسلوك، كما فعل الغرب مع الكنيسة بالضبط.

وهنا تبرز مشكلة – التقليد الأعمى أو الأعور– في الفكر واضحة جليةً عند هؤلاء، فهم لا يختلفون في فكرهم هذا عن الذين يقلّدون التراث والتاريخ ويغرقون فيه دون نقد أو تمحيص.

ولذلك فإني أعتبر هذا الصنف لا يعدو أن يكون مرآةً للصنف الأول في مناقشة وتحليلِ مشكلة تخلف المسلمين، ولكن باتجاه معاكس.

فكل الأخطاء الموجودة في الفكر عند الإسلاميين (في موضوع البحث هذا) ستجدها عند العلمانيين بنفس الصورة لكنها معكوسة.

فمثلاً تجدهم يرفضون الحكم الديني لأنه حكم استبدادي منغلق رجعي كما يصفونه، لكنهم يرحبّون بالحكم العلماني الاستبدادي الذي يهدم الدين ويضع آلاف الأبرياء في السجون بتهمة حملهم لفكر اسلامي (رجعي)..

وهم يحاربون الارهاب الذي يمارسهُ المتدينون كما يعلنون، لكنهم لا يحاربون الارهاب الذي تمارسه الدولة العلمانية ضد مخالفيها. وقس على ذلك بقية الصفات.

فالإسلاميون والعلمانيون في تعاملهم مع مشكلة التخلف (فكرياً) وجهان لعملة واحدة.[١٧]

وطبعاً ليس الاسلاميون والعلمانيون هم الوحيدون في الساحة الذين يطرحون أفكارهم، ولكن كما ذكرنا هم الأعلى صوتاً في مجتمعاتنا. ولكنك ستجدُ بين هاذين الجانبين الواضحين الصريحين في طروحاتهما طيفاً واسعاً من البشر، يأخذ من هذا ومن هذا، ويتلوَّنُ بأفكاره حسب ما تقتضي مصلحته، ويميل حسبما توجّهه رياح الفائدة والنفعية والهوى.

ولكن.. مع كل هذا الاختلاف الشديد بين هذه الفرق فهناك اتفاقٌ واحدٌ غريبٌ على صفةٍ يشتركون فيها، وقد يموتون في سبيلها. وهذه من الصفات القاتلةِ لأي فكر سليم، وهيَ أنهم لا يجرؤون على اتهام أفكارهم مطلقاً، بل اتهامُهم موجّهٌ دائماً الى الآخر المخالف، وأنّه هو سبب التخلف والمصائب.

ولذلك لا تجِدُ نقداً ولا مراجعات من كل هذه الفرق لأفكارها، سواءً كانت دينيةً أم علمانية أم هجينة من هذا وذاك.

١٧ ـ هذا الاستنتاج يختص بهذه المشكلة التي ناقشناها في الصفحات السابقة فقط، وقد يتشابهان أو يختلفان في نظام الفكر في مسائل اخرى.

وعندما لا يكون هناك نقد ومراجعات فإنَّ الفكر سيدخل في نفق مظلمٍ وسيطغى عليه تقديس الأشخاص والمقولات. وبمرور الزمن سيقوم حملة هذا الفكر سواء كانوا من المتدينين أم العلمانيين بمساواتها مع قدسية النصّ الإلهي[18]. . وهذا هو طريق الهاوية الذي لا رجعة فيه.

١٨ - وأعني بهذا.. أن المقولات التي يعتقدها كلا الطرفين غير خاضعة للمناقشة والتصويب والتخطئةِ كما أن النص الإلهي لا يُناقش.. وإلا فإن العلمانيون غالباً لا يؤمنون بنص إلهي.
ومن مظاهر هذا المرض الفكري عند هؤلاء وأولئك أنك ستجدهم ينكرون هذا الاتهام نظرياً ويمارسونه عملياً.

(٦)
الفكرُ والحُكم

- الحكمة لا تعيش مع الاستبداد

ولا بأس أن نفصّل أكثر في الفكر الذي ساد في الأمة، وكيف تعامل مع قضية الحكم والاستبداد، لأنه من أهم الأمثلة التي توضح مدى تشوّش المنظومة الفكرية السائدة منذ قرون مضت، وورثنا هذا التشوش والاضطراب والذي صبغ المنظومة الفكرية المعاصرة عندَ بحثها عن أسباب تخلف المسلمين، أياً كان من يحملها من الأطراف التي ذكرناها، اسلاميين أم علمانيين أم خليطٌ منهما .

فالمنظومة الفكرية في عالمنا الاسلامي المعاصر بكل أطيافها المتناقضة لم تناقش بجدية واهتمام الأسباب الحقيقية التي أدت الى تخلف هذه الأمة عبر تاريخها وصولاً الى واقعنا المعاصر. . لأنه لم يكن هناك اهتمام أصلاً بقضية الفكر وتشكُّله وتطوّره لقرونٍ خلت.

وأحدُ أهمِّ الأسباب وأخطرها كما ذكرنا سابقاً، هو ما أحدثهُ الاستبداد السياسي في نظام الحكم بعد الخلافة الراشدة مباشرةً[١٩] من تشويه لأحكام الدين وتطبيقاته.[٢٠] وما أورثه لنا هذا الاستبداد من مصائب وكوارث لا زلنا نعاني منها . وكأنَّ معاناتنا منها عبر التأريخ لا تكفي، فأخذنا نطبقها ونقتدي بها في حياتنا المعاصرة.

ومع أنَّ كتب التاريخ مليئةٌ بأخبار الانتهاكات التي مارسها من حكموا هذه الأمة والمصائب التي جرّوها عليها، إلا أنَّ هناك إصرارا ًغريباً على الاعراض عنها وعدم تناولها بالبحث والتحقيق.

وقطعاً ليس كلُّ ما روتهُ كتب التاريخ صحيحا، ولكن البحث المنصف كفيلٌ بالاقتراب من الحقيقة ووضع اليد على مكامن الخطأ في قضية الحكم التي أوردت هذه الأمة الموارد .

ولكن . . لم حصل هذا الإعراض عن هذه المخالفات؟

١٩ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلافةُ النُّبوَّةِ ثلاثون سنةً، ثم يُؤتي اللهُ الملكَ مَن يشاءُ)... وهذه السنين الثلاثين هي مجموع الخلافة الراشدة لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

٢٠ ـ فالحكمُ أول عروة من عرى الاسلام التي نُقضت كما شرحناها سابقاً.

لم يكن ينقص هذه الأمة العلماء والأذكياء وأهل الفطنة من الذين تركوا لنا إرثاً ضخماً راقياً من العلوم والفنون التي كانت في زمانهم.. إلا أنهم توقفوا في علوم السياسة والحكم توقفاً غريباً لا يليق بقاماتهم ومقاماتهم وعقولهم!!

لقد حدث هذا التوقف والجمود لأن الفكر الذي بدأ يتشكل بعد انقضاء فترة الخلافة الراشدة وساد لقرون عدة، يمنع من النقاش والحوار حول الحكم أصلاً، فما بالكَ بالكلامِ عن إصلاحه وتطويره.

لقد رضي المسلمون رغبةً أو رهبةً بـ (وليّ الأمر المتغلّب)، وحذّرهم كبراؤهم من الخروج عليه. ولا زال هؤلاء الكبراء يمارسون نفس هذا الدور ولكن مع التوسع في مدلول الخروج على وليّ الأمر ليشمل في عصرنا هذا التضييق على مقالة الصحفي، وكتاب المثقف، وخطبة الواعظ، إذا كان في كلامهم نقد أو نصح أو دعوة للإصلاح. فكلها اليوم تُعدُّ في عرف الكبراء خروجاً أو تحريضاً للخروج على ولي الأمر، يستوجب أشد العقاب.

وهكذا تشكَّلَ هذا (الفكر) المستكين ببطءٍ وهدوءٍ وانتشر كالسرطان في جسد الأمة، حتى أقعدَ هذه الأمة بعد نهوض، واضعفها بعد قوة، وأذلّها بعد عزّ.

وهذا الفكر المستكين كان هو الأساس لكل ما حدث بعد ذلك من تأخر وتراجع للأمة، لأنَّ مثل هذا الفكر الذي يُسلّمُ اصحابهُ قيادهُم وعقولهم ودينهم ودنياهم – لولي الأمر المتغلب – يفعل بهم ما يشاء كما يشاء في أي وقت يشاء، سينتهي بهم حتماً الى الدوران حول هدف واحد، هو مصلحة ولي الأمر وأولاده وعشيرته، والحروب التي يخوضها لتوسيع ملكه، وقتال من يخالفه، وقتل من يعارضه ولو بالكلمة أو اضطهاده.

ومن المفارقات التي تستحقُّ الدراسة والنظر، أنَّ الخليفة المأمون (٧٨٦–٨٣٣) وهو العالم الذكي والذي كان بيت الحكمة[٢١] فترة خلافته في أزهى عصوره، وانتعشت في زمنه حركة الترجمة لكتب الفلسفة والطب وغيرها من كتب اليونان.. هذا الخليفة الذي شجع العلمَ واتسع صدرهُ لعلوم غير المسلمين. أدّى به فكرُ الاستبداد لأن يضيق ذرعاً بمخالفة الإمام أحمد بن حنبل (٧٨٠–٨٥٥) له في مسألةِ خلقِ القرآن، وجعلَ منها قضية وفتنة لكثير من علماء عصرِه، ونال الامام أحمد ابن حنبل من أذاه ما نال.

فأين أثر دار الحكمة واين أثر العلم إذن؟ بل أين الحكمة نفسها ؟ وهذا أوضح درس أنَّ الحكمة لا تعيش مع الاستبداد.

٢١ - أنشيء بيت الحكمة في عهد الخليفة هارون الرشيد.

وكان من آثار هذه المنظومة الفكرية الفاشلة على الأمة عبر تاريخها ثمَّ على الأجيال المعاصرة ما نعيشهُ اليوم من تخلفٍ. وآثارها السلبية كثيرة سأقتصر على مناقشة ثلاثة منها:

أولاً: سدُّ باب الاجتهاد في الفقه والشريعة منذ القرن الرابع الهجري، وقصره على المذاهب الأربعة المشهورة.. وللعلماء كلام كثير في هذه الدعوى، بعضه منطقي ومقبول وبعضه لا.

صحيحٌ أنَّ بعض الأفذاذ من علماء الأمة لم يُسلّموا بدعوى سَدّ باب الاجتهاد ولكننا نتكلم عن فكرٍ سائد أضرَّ بميدان فكري من أهم الميادين التي تمسُّ حياة المسلم وتقودها وهي الأحكام التفصيلية للشريعة. ولا شك أنَّ من الأسباب المهمة لهذه الدعوةِ التي سادت منذ القرن الرابع الهجري هي أسباب سياسية وليست أسباباً علمية فقط.

وهنا نورد ما ذكرهُ ولي الله الدهلوي لتعليل ما حدث في القرن الرابع الهجري من توقف في الاجتهاد والاقتصار على المذاهب الأربعة في كتابه (حجة الله البالغة):

"ومنها أنهم اطمأنوا بالتقليد، ودبَّ التقليد في صدورهم دبيب النمل وهم لا يشعرون، وكان سبب ذلك تزاحم الفقهاء وتجادلهم فيما بينهم، فإنهم لمّا وقعت فيهم المزاحمة في الفتوى كان كل من أفتى بشيء نوقض في فتواه ورُدَّ عليه، فلم ينقطع الكلام إلا بمسير الى تصريح رجل من المتقدمين في المسألة.

وأيضاً جورُ القضاة، فإن القضاة لما جار أكثرهم ولم يكونوا أمناء، لم يقبل منهم إلا ما لا يريب العامة فيه، ويكون شيئاً قد قيل من قبل". [٢٢]

فالركون الى التقليد مع جور القضاة (وجَورهم امتداد لجَورِ ولي الأمر) والاطمئنان الى الأفكار الجاهزة وضعف الهمة، كلُّ هذه المصائب إنما هي جزءٌ يسيرٌ من الثمار المرة لفكر الاستكانةِ.

بينما يذهب محمد جواد مغنية الى أبعد من ذلك فيقول: "..أما أنا فأميل الى أن السبب الوحيد لسد باب الاجتهاد هو تخوف الحاكم الظالم من حرية الرأي والقولِ على نفسه وعرشه، فاحتال وتذرع بحماية الدين –كما هي عادته– لينكّلَ بكل حرّ يأبى التعاون مع دولته على الفسق والفجور." [٢٣]

---

٢٢ - حجة الله البالغة – أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي – تحقيق السيد سابق – دار الجيل – الطبعة الأولى ٢٠٠٥م – ج١ – ص ٢٦٢

٢٣ - الفقه على المذاهب الخمسة – محمد جواد مغنية – دار التيار الجديد – بيروت لبنان / ٢٠٠٠م – ص٩

ثانياً: من ثمار هذا الفكر المستكين أيضاً أنه رسم في عقول الأجيال المعاصرة صورةً غير حقيقية وغير كاملة عن تاريخهم، فهي صورة مجتزأةٌ منتقاةٌ ركَّزت الضوء على جانب واحد وهو الجانب المشرق، وأغفلت عن عمد جوانب مظلمةً كثيرةً أخرى.

فأغلبُ[٢٤]ما تقرأه في نتاجات الكتّاب المسلمين المعاصرين وخاصة بعد منتصف القرن العشرين فيما كتبوه من كتابات تاريخية، أو في استشهادهم بروايات التاريخ في كتابات أخرى، هو مجرد تمجيد للدول التي تعاقبت على الحكم بدءاً من الدولة الأموية وانتهاءً بالدولة العثمانية، وتمجيدٌ للحكام الظلمة وتعداد لمآثرهم وانجازاتهم، وغضُّ الطرف عن الجرائم التي ارتكبوها تحت شعار الدين وطاعة الخليفة، وغضُّ الطرف عن الحروب التي سُفكت فيها دماء الأبرياء لتثبيت دعائم

٢٤ ـ استخدمتُ كلمة (أغلب) تحفظاً وإنصافاً لجهودٍ وأفكارٍ لمعت في سماء الفكر، ولكن لم تجد من يتبناها ويدعمها ويطورها. فبعض العلماء الكبار تنبهوا لآفة الاستبداد وما أحدثته من تخريب في الماضي والحاضر ومنهم عبد الرحمن الكواكبي رحمه الله في كتابه الشهير (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) والذي كان يحمل فكراً نيراً تجاوز به منظومة التفكير المتخلفة في زمنه والتي لا زالت هي الطاغية الى يومنا هذا. ولكن مثل هذه الشخصيات الفذة تُهمل عادةً ويُطمر فكرها لأنها خطر أكيد على الزعامات الدينية والدنيوية لو تنبّهَ الناس لها.

السلطة والجبروت، وعدم تحليلها ومناقشتها بإنصاف وإنكارُ ما يجب انكارهُ، بل تجدُ الحرص على تجاوزها وإخفائها .(٢٥)

حتى إنَّ كثيراً ممن يقرؤون مثل هذه الكتب التي تمجدُ الماضي وتغضُّ الطرف عن الاستبداد وما أدى اليه من كوارث، لا يعلمون أنَّ أطهر بقعتين على الأرض عند المسلمين وهما مكة المكرمة والمدينة المنورة لم تسلما من هذه الحروب. . ولم تسلم منها حتى الكعبة المشرفة. . ولم يسلم منها حتى أبناء الأنصار وأحفادهم. . وهم الذين دعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرحمةِ بعد معركةِ حُنين فقال: (.. **اللهُمَّ ارحَمْ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ..)**

فعندما تمرّدَ أهل المدينة على يزيد بن معاوية وخلعوا بيعته أرسل اليهم مسلم بن عقبة المرّي في اثني عشر ألفاً وقال له: "ادع القوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلا

٢٥ - وهنا يجب أن أشيرَ الى استثناء مهم.. فعندما ولِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة أوقف كل الجيوش وأنهى كل الحروب، وحتى الخوارج هدأوا واستقروا في فترة خلافته ولم يخرجوا عليه، ويكاد أن يكون هو الخليفة الوحيد الذي اتفقت الأمة الاسلامية بكل طوائفها بل حتى أعداؤه على عدله وصلاحه وامتداح عهده وسياسته وإلى يومنا هذا.. ومع ذلك لم يتحمل بنو أمية هذا الرجل الصالح لعامين ونصف فقط، فدسوا له السم ومات مسموماً في ارجح الأقوال. وعندما بلغ ملك الروم أمر وفاته، جمع حاشيته، وقال لهم: "إن ملك العرب الرجل الصالح قد مات".. فتأمّلْ.
لقد كان شهاباً أنار ظلمات الاستبداد لكنه انطفأ سريعاً، ولم تأخذ حياته وفكرهُ وتجربته في الحكم حظّها من الدراسة والتحقيق الفكري، لتقصّي أسباب نجاحه وارتقائه بالأمة وإن كان لفترة قصيرة، وأسباب فشل من كان قبله من بني أمية ومن جاء بعدهُ الى يوم الناس هذا.. والذي أوصل الأمة الى هذا الحال.

فقاتلهم فإذا ظهرت عليهم فانهبها ثلاثاً فكلُّ ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس...".

وحصلت المعركة التي سميت بوقعة الحَرّة وقتل فيها عدد من الصحابة ومئات من حملة القرآن وآلاف من أهل المدينة، واستبيحت ثلاثة أيام لجند الشام بأموالها وأنفسها، وارتُكب فيها من الفظائع ما روته كتب التأريخ فارجع اليها إن أردت... هذه مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم...

أما ضرب الكعبة بالمنجنيق من قبل الحجاج الثقفي في وقعة ابن الزبير فمشهورة معروفة.

كما لا يعلم الكثيرون ممن يقرؤون (لدعاة الماضي المجيد) أنَّ عدداً لا بأس به من (سلاطين الدولة العثمانية العليّةِ) قتلوا إخوتهم الأشقاء دفعاً لشبهةِ المنافسة على العرش.

ومن أغرب ما رواه المؤرخون الموالون والمحبون للدولة العثمانية أنَّ السلطان الغازي محمداً الثاني الملقب بالفاتح قتل أخاً رضيعاً له بعد موت أبيه وتسلّمهُ السلطنة مباشرةً!!. ومع أنَّ بعض الباحثين يشككون في هذه الحادثة، ولكنَّ أحد رواتها هو محمد فريد بك في كتابه (تاريخ الدولة العلية العثمانية) وهو عثماني

الهوى. . كتب يقول: "وبعد أن أمرَ بنقل جثة والده الى مدينة بورصة لدفنها بها أمرَ بقتل أخ له رضيع اسمه أحمد . . . " (٢٦)

أمّا من سبق الأولين والآخرين من سلاطين آل عثمان في قتل إخوته فهو السلطان الغازي محمد خان الثالث، والذي قتل (١٩) من أخوته الذكور. . فقد كتب محمد فريد بك في كتابه آنف الذكر يقول:

" . . وتولّى بعد موت أبيه مراد الثالث وكان له تسعة عشر أخاً غير الأخوات فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه ودفنوا معه تجاه آياصوفيا . . "(٢٧)

وكثير من كتاب السلاطين المحدّثينَ من حملة فكر التمجيد والتبرير يُجهدون أنفسهم لإنكار هذه الروايات، واتهام من يرويها بأنه من أعداء الدولة (العليّة). ولكن يقفُ بوجههم أنَّ من رواها مؤرخ محب وليس معادٍ للدولة العثمانية. فإذا أعجزهم الإنكار حاولوا تبريرها بحجج وبأعذار سمجةٍ أحياناً، كالمصلحة العليا للدولة والخوف على وحدتها وسلامتها !

---

٢٦ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ــ محمد فريد بك ــ الطبعة الثانية ــ مطبعة محمد أفندي مصطفى بحوش قدم بمصر المحمية ــ ربيع الثاني سنة ١٣١٤ هـ / سبتمبر ١٨٩٦م ـ ص٥٩ .

٢٧ ـ المصدر السابق ــ ص ١١٧

وقد كان يسعُ أمثال هؤلاء الكتاب أن يكونوا منصفين فيمتدحون الفعلَ الحسن بدون مبالغة، ويذمّون الفعلَ القبيح بدون مبالغة.. ولكنَّ العمى الفكري صوَّر لهم أنَّ أي نقد يوجهُ لمن يعتبرونه رمزاً تاريخياً هو نقد للإسلام، وأنَّ ايَّ منتقد ولو كان محباً مخلصاً منصفاً هو بالضرورة يريد هدم الاسلام وتاريخه، وتشويه صورة الماضي المجيد.. ولا علاج لمثل هذا العمى الفكري المستحكم.

ومن يكتبون اليوم ويمجّدون الماضي بخيره وشرّه (من كل الطوائف والمذاهب) دون انصاف وتحقيق ونقد هم في الحقيقة لم يرتقوا حتى الى شجاعة وتحقيق السلف من المؤرخين المسلمين العظماء الذين نقلوا لنا تاريخ الدول والشعوب بمحاسنه ومساوئه ولم يخفوا شيئاً ولم يبرروا.

ولولا شجاعتهم وصدقهم ونقلهم لنا كلَّ ما استطاعوا الوصول اليه من الأخبار والوقائع لتلك الدول وأولئك الحكّام - بأمانة ودون انتقاء وتدليس- لما عرفنا الطيّبَ والخبيث، والجيد والرديء من تاريخ امتنا والأمم الأخرى.

وإذا قرأت كتبَ أولئك المؤرخين العظماء وقارنتَ بها ما يكتبه المعاصرون ستجدُ الفرق بين الصادق والمدلّس، والمنصفِ والمتحيز.[٢٨]

وسببُ هذا التصرف عند الكتاب المعاصرين هو - النظام الفكري- المستكين والمتخلف والمنهزم الذي يحملونهُ أمام حضارة الغرب وجبروته في مقابل التخلف والذلة التي يعيشونها في دولنا . فيسعونَ لتغطية انهزامهم الفكري والنفسي بتلميع الماضي والفخرَ به سواءً بحقٍ أم بباطل، وبتبرير السيئات والمظالم التي كان يرتكبها أولئك الحكام ويستحلّونها (فهم رغم كل شيء أولياء الأمر) الذين تجب طاعتهم. ورأسمال هؤلاء الكتاب المعاصرين الوحيد هو ذاك الماضي فكيف ينتقدونه؟ وما الذي سيبقى لهم ليفاخروا به؟

٢٨ - يقول الطبري في مقدمة تأريخه الشهير: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما احضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، او يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنّا إنّما أدينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا".
طبعة بيت الأفكار- ص٩ .
فهو ينبه أنه قد رَوى كما سمع من غير تحقيق ولا تدقيق ولا انتقاء ولا تخطئة ولا تصحيح، حفظاً لأمانة النقل والرواية.. ومن يريد التحقق من صدق الواقعة فعليه أن يبذل الجهد في ذلك.

والسؤال المهم الآن لأصحاب فكر التمجيد والتدليس: كيف يمكنكَ اليوم وأنت تحمل مثل هذا الفكر أن تقول لحاكم ظالم لا تقتلْ شعبك، ولا تشردْ مخالفيك، ولا تأكلْ أموال الناس بالباطل؟

كيف؟!..

وهو يقرأ تمجيدكَ لأسلافه من الحكام الظلمة الذين استباحوا المظالم والمنكر، ثمَّ تبرر فعلكَ هذا بعذرٍ أقبح من الذنب وهو: أن محاسنهم تغلب مساوئهم وتغطّي عليها!؟(٢٩)

فإذا كان هذا ميزانك للرجال وأفعالهم.. إذن فاعتبر هذا الحاكم الظالم اليوم كأولئك بالأمس، فهو يقتدي بهم، وقد تغلبُ أيضاً محاسنُهُ مساوئَه، فما الفرق؟

٢٩- مثل هذا الكلام قد يصدقُ على الانسان العادي الذي لا يحمل على أكتافه مسؤولية الملايين من البشر، فنقول إن كانت محاسنه كثيرة فإنها تغطي سيئاته القليلة بشرط أن لا يتعدى ضررها الى غيره... أما الحاكم فإن سيئته الواحدة تضر الملايين من البشر فأي محاسن يمكن أن تغطيها؟!... وقد كان سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه يخافُ وهو في المدينة أن يحاسبه الله تعالى على شاة تُفقد بأرض العراق.. فعن علي رضي الله عنه قال: "رأيت عمر بن الخطّاب على قتب يعدو، فقلت: "يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ قال: "بعير نَدَّ من إبل الصدقة أطلبه". فقلت: "لقد أذللت الخلفاء بعدك. فقال: "يا أبا الحسن لا تلمني فوالذي بعث محمداً بالنبوة لو أن عناقاً أخذت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة".
فأين هذا الكلام ممن ضلّ فكرهُ وعمي قلبهُ من كتاب السلاطين؟.

وأيضاً نسألُ مرةً أخرى أصحاب فكر التبرير والتمجيد للحكام والسلاطين:

أين أنتم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلَّم الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة وهو يقول: (ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك. والذي نفس محمَّد بيده، لحُرْمَة المؤمن أعظم عند الله حرْمَة منكِ، ماله ودمه، وأن نظنَّ به إلاّ خيرًا) .

وأين أنتم من قول سيدنا عمر رضي الله عنه عندما اشترك جماعة من الناس – خمسة أو سبعة – فقتلوا غلامًا على حين غفلةٍ منه، فأمر عمر رضي الله عنه بقتلهم جميعا، وقال:(لو اشترك فيها أهل صنعاء جميعًا لقتلتهم به) ؟.

وماذا لو قتل أحد الحكام في عصرنا تسعة عشر من إخوته، أو أخ رضيع، كيلا تحدث فتنة وينازعونه على السلطة؟!

كم مقالة سيكتب هؤلاء – المدّاحون لسلاطين التاريخ – في ذمّهِ وبيان وحشيته ودكتاتوريته. وقطعاً سيكون كلامهم صحيحاً.. ولكن نفاقهم وفكرهم المزدوج المعوج ايضاً سيكون صحيحاً.

هذا ما يحصل عندما ينحرف ويتشوّهُ الفكرُ في عقول الناس.. ويزداد الأمر سوءاً عندما يكون الانحراف في عقول النخبة المثقفة.

وهذا الانهزام الفكري أمام الغرب هو نفسهُ الذي يدفع الجبهة المقابلة وهم العلمانيون الى نبذ الدين والتراث جملةً، والتبرؤ من هويتهم، وطرح تصورات هلامية لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً ولا تبني حضارة. بتصرف مريبٍ مُعاكسٍ، لكنه يوصلك الى نفس النتيجة وهي (اللاحل).

فهم مجرد صورة معكوسة في المرآة لمخالفيهم كما ذكرنا. وإذا كان الاسلاميون يتشبثون بالماضي وينسون الحاضر والمستقبل، فهؤلاء العلمانيينَ قد اضاعوا الأزمان الثلاثة، ويريدون أن يبنوا كوناً موازياً ليعيشوا فيه.

ثالثاً: من الآثار الخطيرة لفكر الاستكانة والتقليد والرضا بالماضي المجيد، أنه يزرع في فكر كل عربي ومسلم بذرة طاغية، ستكبرُ وتنمو بداخلهِ.

نعم.. ربما يموت ولا تظهر عليه آثارها، لأنَّ الفرصةَ لم تُتح لهُ.. ولكن ستظهر آثارها المشؤومةُ مباشرةً بمجرد تسنُّمِهِ سلطةً ما مهما كانت بسيطة.. إذ ذاك ستجد منه وجهاً غير الذي كنتَ تعرفه من قبل.

وحينذاكَ ستظنُّ أن السلطة والمسؤولية هي التي غيرته، وهذا غير صحيح، فبذرة الاستكانة لولي الأمر والتي زُرعت في فكره منذُ الصغر قد كبُرت

وانتعشت الآن في بيئة المسؤولية والسلطة، عندما أصبح هو وليُّ الأمر، وآن أوان قطف ثمارها المشؤومة من قبلِ الذينَ أوقعهم حظهم السيء تحت سلطته.

هذا المثال (وأعني سبب تخلف الأمة الاسلامية) أطلتُ في تحليله لأنه مهم جداً، ولأنه يكاد يكون الشغل الشاغل لكل من يتحدث في أمر الأمة العربية والاسلامية وهمومها.

وسنكتفي مع هذا المثال بمثالٍ ثانٍ يلازمُ الاستبداد ملازمة الظلِّ وهو – الفساد الإداري– والذي هو كذلكَ نتاج للفكر إذا انحرف وتشوَّه.

(٧)
الفكر والفساد الإداري

- **فالمواطنُ الذي يعتقد أن الرشوة هي مفتاحٌ لكل باب، سيبدأ بهذا الطريق بدءاً من محاولته الحصول على الشهادة المدرسية حتى شهادة الوفاة..**

هذا مثال ثانٍ من واقع حياتنا اليوم، ولا يكاد يوجد انسانٌ في بلادنا لا يعاني منه ومن آثاره، سأتناولهُ أيضاً بتبسيط أرجوا أن لا يكون مُخلاًّ.

وأصلُ هذا الفصل مقال كتبته في صيف عام ٢٠٢٠ بعنوان **(الإصلاح يبدأ بنظام التفكير أولاً)** [٣٠] وقد وجدتُ من المناسب أن أضعه في هذا المكان، فهذا محلّهُ كأنموذج ثانٍ يشرح ما أريده بعملية اصلاح الفكر أولاً. وقد نقّحتُ المقال وأضفتُ اليه بعض التوضيحات البسيطة بما يناسب إدراجه ضمن هذا الكتاب.

---

٣٠ - نشرتهُ في مدونتي الشخصية الأولى بتاريخ ١٦-٦-٢٠٢٠ وهذا رابط المقال
https://aafaqhd1.wordpress.com/2020/06/16/%d8%a7%d9%84%d8%a7%d8%b5%d9%84%d8%a7%d8%ad-%d9%8a%d8%a8%d8%af%d8%a3-%d8%a8%d9%86%d8%b8%d8%a7%d9%85-%d8%a7%d9%84%d8%aa%d9%81%d9%83%d9%8a%d8%b1-%d8%a3%d9%88%d9%84%d8%a7%d9%8b/#more-947

الإصلاح يبدأ بنظام التفكير أولاً

أعتقدُ جازماً أن الطريق الى اصلاح الفرد والمجتمع، يبدأ أولاً بإصلاح نظام التفكير. لأن محاولة تعديل السلوك الخاطئ بالقوة أو بالقانون فقط، مع وجود نظام تفكير خاطئ في المجتمع لن يجدي، وقد فشلَ في الماضي، ويفشلُ الآن ، وسيفشل في المستقبل حتماً .

وهذا الموضوع على خطورته لا يأبهُ لهُ الكثيرون، لأنّ من طَبعِ الانسان أنه عجولٌ ويحبُّ الفوائدَ الظاهرة الملموسة والسريعة، فيبحث عن البطَلِ المنقذ ويكره الطريق الطويل في الاصلاح، رغم كل الشواهد والدروس التي تؤكدُ خطأه في هذا الخيار، وتؤكدُ أن طريق الاصلاح الطويل الذي يبدأ بإصلاح نظام التفكير هو الطريقُ الثابت الراسخ المستديم.

ولكي نعرفَ المقصود بإصلاح نظام التفكير، نبدأ اولاً بالتعرف على النظام ما هو؟

النظام ضد العشوائية والعبث.. ولكي نطلقَ على أي فعلٍ بشري أنه – نظام – أينما كان وفي أي مجال من مجالات الحياة، يجب أن يحوي هذا الفعلُ ثلاثةُ فضاءاتٍ مرتبطة بعضها ارتباطاً **تفاعلياً ومصيرياً** .

والارتباط التفاعلي: يعني أن كل فضاء من الفضاءات الثلاثة يؤثر سلباً أو ايجاباً في الفضاءين الآخرين.

أما **الارتباط المصيري:** فيعنى أن الخلل في أي فضاءٍ من هذه الفضاءات سيؤدي حتماً الى الفشل في النتيجة النهائية.

وهذه الفضاءات هي: المدخلات – العمليات – المخرجات

ولكي يعمل النظام بصورة جيدة وفعّالة لتحقيق هدف ما، يُفترض أن تكون المدخلات صحيحة، والعمليات التي تجرى عليها صحيحة، وبالتالي سنحصل على مخرجات صحيحة تحققُ الهدفَ بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ولا يجوز أن نهمل أياً من الفضاءات الثلاثة، ولا يجوز أن تكون محاور أو متطلبات كل فضاء ناقصة أو غير محيطة بالموضوع من كل جوانبه، فأي نقص أو خلل مهما كان بسيطاً في أي من الفضاءات الثلاثة سيؤدي الى غير النتيجة التي نريد، وهذا شيء منطقي في عمل النظُم.

والنظُمُ فيها ما هو بسيط وفيها ما هو معقد أو مركب.

وغالباً في النظام البسيط يكون الهدف المقصود هو المُخرَجُ الوحيدُ للنظام.. بينما في الأنظمة المعقدة هناك مُخرجات عدة تتفاعل مع بعضها لتحقيق الهدف.

والمثال على النظام البسيط هو اسلوب الاختبارات في نظامنا التعليمي. فالمدخلات هي المادة الدراسية، والعمليات هي الحفظ والفهم والتكرار وفهم السؤال، والمُخرجُ الوحيد من هذا النظام هو النجاح.. وهو الهدف.

ومثال النظام المعقّد هو محاربة الفساد وهو ما سنناقشهُ هنا كمثالٍ تطبيقيٍ.

ومفهوم النظام ينطبقُ على أي فعلٍ بشري، وعندما نُطبّقُ مفهوم النظام على مستوى التفكير البشري نقول بأن هناكَ – نظام تفكير– لهذه المجموعة من البشر أو تلك.

وخطورة نظام التفكير هو أنه يسبقُ كل الفعاليات البشرية.. بمعنى أن كل الفعاليات والسلوكيات البشرية هي نتاج حتمي لنظام تفكير معين. ولا يحدثُ عند البشر مطلقاً أي فعلٍ أو سلوكٍ لا يسبقه فكرٌ، بغضِّ النظر عن مستوى الفرد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

لذا فإنَّ هذه الفعاليات والسلوكيات تتغير كلياً أو جزئياً حسب نوع التغير في نظام التفكير.

أما اذا لم يتغير نظام التفكير فان أي معالجات أو حلول لتغيير سلوك الانسان وفعالياته في الحياة تكون وقتية وفاشلة.

ولهذا تكون المعالجات الاصلاحية التي لا تنتبه الى اصلاح نظام التفكير على مستوى الفرد والمجتمع والحكومة معالجات فاشلة دائماً على المدى البعيد ، وأحياناً على المدى القريب.[٣١]

ولكي يكون النظام الفكري السليم فاعلاً وقائداً للمجتمع، يجب أن يكون واضحاً ومقنعاً لكل أفراد المجتمع لكي يتبناه الجميع ويؤمنون به، حتى يرسَخَ رسوخَ العقيدة في العقول والقلوب.

فلا يكفي أن يكون النظام الفكري السليم والناجح مقصوراً على الطبقة المثقفة أو طبقة السياسيين أو طبقة علماء الدين، أو أي فئة أخرى من المجتمع. بل

٣١- لماذا قلتُ "أحياناً على المدى القريب"؟.. لأن بعض المعالجات التي لا تراعي التغيير في نظام التفكير قد تنتجُ تغييراً مباشراً على المدى القريب كما تفعل الديكتاتوريات، فهي تفرض السلوك فرضاً بالترهيب ويلتزم الناس به، الى أن تضعف هذه الديكتاتوريات أو تزول، فيعود الناس لما كانوا عليه من قبلُ أو أشد سوءاً.. وهذا واقع مؤسف عشناه ورأينا ثماره المُرّة.

يجب أن يكون هو السائد وهو القائد عند كل فرد من أفراد المجتمع، أو على الأقل عند الأغلبية من أفراد المجتمع.

وعودة الى مثالنا الذي اخترناه، وبالأمثال تتوضح الأقوال:

- مكافحة الفساد- هو أشهر شعارٌ ترفعه كل الحكومات. وفي دولنا عادةً ما تفشل الحكومات في تحقيقه، رغم كل القوانين والعقوبات الصارمة التي تسنُّها الحكومة، ورغم أن الفاسدين معروفون بشخوصهم وأعمالهم، وبعضهم صدرَتْ ضدّهُ فعلاً أحكاماً قضائية !!

ويستمرُّ هذا الفشلُ حتى يصل الأمر الى أن يفقد الناس الثقة بالحكومة وبهذا الشعار، وبكل من يدعوا اليه.

والآن لنحلل كيف يتحققُ هذا الهدف بنظام تفكير سليم، وسأفترض أن نظام التفكير السليم هذا يحمله المسؤول والمواطن، ويؤمن به الفرد والمجتمع، ويمارسه الجميع عن اقتناع وفهم.

وما سأذكره من – مدخلات وعمليات ومخرجات – لهذا النظام هي على مستوى القناعات الفكرية، ويجب أن يؤمن بها الفرد والمجتمع والحكومة قبل أن تُطبّق

على أرض الواقع، وهي التي ستشكل البيئة الفكرية التي ستدعمُ التطبيق وتجعله فعالاً، وما سأذكرهُ من محاور هو على سبيل المثال لا الحصر.

مرّةً أخرى ما سأذكره هو على مستوى الأفكار والمعتقدات، وهو ما أعنيه بمصطلح (النظام الفكري السليم).

وما لم تترسخ في العقول كل المحاور التي سأذكرها في الفضاءات الثلاثة كنظام مترابط متكامل، وتتحول الى عقيدة في الأذهان، لن يتحقق في أرض الواقع شيء حتى وإن طُبّقت.. لأن الناس ستتحايل عليها بصورة أو بأخرى وتُفرِغ التطبيق من مضمونه.. لتحققَ بدلاً عنه ما تؤمن به فعلاً، كما هو حاصل في واقعنا.

وسأقتصر على أهم العناوين فقط لكل فضاء من الفضاءات الثلاثة لأن شرحها يحتاج الى كتاب مستقل.

الفضاء الأول (المدخلات):

وهي المعلومات والتصورات والمفاهيم التي ستؤسّسُ للفكر الذي يحارب الفساد.

- تعريف الفساد بوضوح.
- من هو الذي يتلبس بالفساد؟

- مدى صلاحية النظام القضائي؟
- مدى قوة النظام التنفيذي؟
- توفّرُ قوة الردع في المواد القانونية العقابية.
- مدى تقبل المجتمع للفساد وتعامله معه؟
- تعامل الاعلام مع ملفات الفساد.
- صلاحية ونزاهة الأجهزة واللجان المتخصصة بمحاربة الفساد.
- المستوى الثقافي للمجتمع.
- تفاعل الأجهزة والمؤسسات الدينية والتربوية في محاربة الفساد.
- تأثيرُ القوى الخارجية ودعمها للفاسدين.

الفضاء الثاني (العمليات):

وهي إجراءات ينشئُها الفكر بتفاعله مع المدخلات، ويطالبُ بتطبيقها بصرامة كمخرجات.

- دعم النظام القضائي وحمايته.
- تفعيل الضبط القضائي والتنفيذ.
- رفع الحصانة عن السياسي المتلبس بالفساد.

– المساواة أمام القانون.

– البدء بقمة الهرم.

– منع تخفيف الأحكام القضائية على الفاسدين.

– اشهار الفاسدين بالصوت والصورة.

– ملاحقة الفاسد دولياً.

– الشفافية والوضوح في عرض الحقائق على الجمهور.

– التثقيف في وسائل الاعلام والمؤسسات التربوية ضد الفساد.

– اعطاء الحرية للأفراد في النقد وكشف الفاسدين.

– منع أي تدخل اقليمي أو دولي يشجع على الفساد أو يحمى الفاسد.

الفضاء الثالث (المخرجات):

اذا كانت المدخلات والعمليات على مستوى الفكر صحيحةً، ستكون لدينا هذه المخرجات.

– الثقة بالقضاء وأجهزة الضبط القضائي.

– الشعور بالمسؤولية واستحضار المحاسبة من قبل الموظف العام.

– معرفة الجمهور بالحقائق الايجابية والسلبية عن جهاز الدولة.

– مشاركة المواطن الفاعلة في كشف أي موظف فاسد .

– عدم ممارسة المواطن لأي سلوك يشجع الموظف على الفساد .

– الأداء والانجاز من قبل الموظف العام.

– تيسير عمل الدوائر الخدمية وانجاز معاملة المواطن بأقل وقت ممكن .

– الاحترام الدولي للحكومة وادائها ومؤسساتها .

هذا أمثلة للمحاور في الفضاءات الثلاثة والتي يجب أن يفكرَ فيها ويقتنع بصحتها وضرورتها كلُّ من يريد القضاء على الفساد . وهي قناعات فكرية يجب أن يعتقدها الفرد والمجتمع قبل التنفيذ .

اذا تحقق هذا النظام الفكري وآمن به الجميع، ستجدُ:

– أنَّ المسؤول سيفكّرُ ألفَ مرّة قبل أن يخطو خطوة نحو الفساد الاداري أو المالي.

– وسيكون الاعلامُ متحفزاً لكشف أي عملية فساد وايصال تفاصيلها للمسؤولين.

– وسيمتنع المواطن عن التعامل مع هذه الجهة الفاسدة، فلا ينتخب افرادها ويحذر الآخرين منها ولا يتعاون معها .

- وسيكون القضاء صارماً وجهات التنفيذ حاسمة.

وفي المحصلة سيكون الفاسد منبوذاً مدحوراً..

وهذا ليس حلماً أو تفكيراً مثالياً. فقد وعيتُ في مقتبل حياتي على مثل هذا الحال عندما كان نظام التفكير عند الفرد والمجتمع (في مسألةِ الفساد حصراً) سليماً ونقياً (في أغلبه) ولم يتلوث بعدُ.[٣٢]

ولكن.. هل نُفكر عادة بهذا الاسلوب، والذي يبدوا في ظاهره منطقياً وسهلاً؟

الجواب لا..

واليكَ صوراً من الواقع:

في واقعنا الآن ستجدُ مواطناً يلعنُ الفاسدين صباح مساء، ثم ستجدهُ هو نفسهُ يُقدّمُ رشوةً لموظف بسيط لأجلِ تسريع انجازِ معاملته فقط، وهو غير مضطر لهذا التسريع!!

---

٣٢ - مما أذكره من أمثلة: أنّ المدرس كان يتعفّفُ عن الدروس الخصوصية ويعتبرها شبهة تمسُّ بسمعته.. وأنّ الموظف كان يأخذ ما يتبقى من عمل لم ينجزه أثناء الدوام الرسمي الى البيت ليكمله.. وأنَّ المحاسب المالي في أي دائرة كان يتخوف من نقصان دينار واحد من خزنته عند الجرد السنوي كيلا يتهم بالاختلاس.. وأنّ العامل في محطة الوقود كان يأخذ بالضبط المبلغ الذي يقرأه العدّاد ولا يطالبك بالزيادة وكأنها حقّ له.. وأن الطبيب والصيدلي كانا يُخلصانِ في خدمة المريض ولا يتفقان على نهبه وخداعه بأدوية لا يحتاجها... وأنَّ الموظف المرتشي كان نادرة من النوادر لأنَّ حكم الاعدام أو المؤبد لا يفارق مخيلته. وغيرها كثير من الصور... وهذا لا يعني عدم وجود مخالفات وشواذ لهذا الحال.. ولكنه شذوذ يؤكد القاعدة ولا يهدمها.

فعقله أو (نظام تفكيره) لا يربطُ بين هذا السلوك الوضيع الذي يقوم به وبين الفاسدين الذين يلعنهم.

مثلُ هذا المواطن عنده خلل في مدخلات نظامه الفكري والعمليات التي يجريها عقله مع هذه المدخلات فينتج عنه هذا السلوكُ المتناقضُ مع القول.

وكذا ستجدُ مسؤولاً يعدكَ بمحاربة الفاسدين وهو لا يتورع عن استحلالِ الأموال التي تأتيه من جهة أجنبية لتدعمهُ وتدعمَ حزبه وجماعته وأفكاره.

وكذا ستجدُ الوزير الذي يعِظُ الشعبَ بالنزاهة ومحاربة الفساد، ثم يمرّرُ عقوداً وهميةً وصوريةً لتحصيل الأموال له ولجماعته وطائفته.

وهناك مئات الحالات والصور يمكن أن تكون شواهد لانحراف النظام الفكري عند الفرد والمجتمع. فهذه الأمثلة وغيرها لا يمكن أن نعتبرها سلوكيات فردية أو أخطاء يقوم بها البعض. لأنها شائعة ومتكررة ومتزايدة.. وهذا دليل على وجود - نظام فكري منحرف- هو الذي يقودُ المجتمع نحو الهاوية.

فالمواطنُ الذي يعتقد أن الرشوة هي مفتاحٌ لكل باب، سيبدأ بهذا الطريق بدءاً من محاولته الحصول على الشهادة المدرسية حتى شهادة الوفاة، مروراً بكل حركةٍ وسلوكٍ يتحرك به في حياته، وسيربّي أولادهُ على سلوك هذا الطريقِ، وينصح

به الآخرين. وسيُسمّي الرشوةَ بأسماء أخرى مختلفة، وسيبحثُ عن فتاوى تبيح له الرشوة، وسيصل به الحال أن يحجّ ويعتمرَ بعد دفع الرشوة (لمستحقيها) كي يتجاوز بعض العوائق والقوانين.

كيف نصلح النظام الفكري المنحرف؟

والدعوة لإصلاح النظام الفكري تتضمن:

١. ان تكون المدخلات صحيحة ومحيطة بالموضوع من كل جوانبه الداخلية والخارجية.

٢. أن تكون العمليات صحيحة وخاضعة لأحكام الشرع (في الأمور الشرعية)، أو للقانون والدستور (في الحكومة ومؤسساتها)، ولا يُستثنى منها أحد بسبب منصبه أو مكانته الاجتماعية.. وتخضع هذه العمليات دائماً لتقييم صلاحيتها ومدى فعاليتها في الواقع.

٣. أن تكون المخرجاتُ محقّقةً للهدف المطلوب، وإن لم تكن كذلك فهذا مؤشرٌ على وجودِ خللٍ في المدخلات أو العمليات، أو في كليهما، ويجب معالجته سريعاً.

٤. أن يعتقدَ الفردُ والمجتمعُ بهذا النظام الفكري بفضاءاته ومحاوره، ولا يساومَ عليه.

هذه العملية نظرياً تبدوا سهلة، لكن الواقع غيرُ ذلك.

فهو يحتاج الى جهد وزمن، ويحتاج أولاً الى من يتنبه له من المسؤولين وقادة الرأي، ويحتاج الى وعي جماهيري عام.[٣٣]

من هو المسؤول عن اصلاح النظام الفكري في المجتمع؟

– الحكومة

– المؤسسات التربوية والدينية

– الإعلام الحكومي والإعلام الخاص

– منظمات المجتمع المدني باختلاف صورها ووظائفها

– الطبقة المثقفة وعلماء الدين (من كل المللِ والنّحَل)

هذا فيما يخصُّ المجتمع ككيان عام. أما فيما يخص الفرد فكلٌّ منا مسؤولٌ بصورة مباشرة عن هذا التصحيح لنفسه ومن يعول.

وعملية تصحيح النظام الفكري للفرد والمجتمع لا تكون لمرّة واحدة وتنتهي، بل هي عملية مستمرةٌ ما دام الفرد حياً وما دام المجتمع قائماً. لأن متغيرات الحياة

٣٣ - وسنعيد هذا الكلام بتفصيل أكثر في فصل خاص.

مستمرة لا توقف، والقرار الذي يكون اليوم صحيحاً، قد يكون بعد سنين خاطئاً بل كارثياً . والاسلوب الناجح اليوم قد يكون فاشلاً في الغد .

في رأيي. . ليس لدينا خيارٌ في عملية الاصلاح الا أن نبدأ بإصلاح النظام الفكري، والا فان معوقات الاصلاح ستتوالد وتتكاثرُ بسبب الأنظمة الفكرية الخاطئة للأفراد والمؤسسات والأحزاب، وما سيبنيهِ فردٌ واحدٌ سيهدمه عشرات الأفراد .

الخطوة الأولى إذن. . أن نعترف بالمشكلة ونسمّيها باسمها وهي **وجود خطأ وأمراض في الفكر ونظام عمله** في مجتمعاتنا بمختلف طوائفه ومذاهبه ودياناته، فالأمر ليس مقتصراً على المسلمين وحدهم، بل يشاركهم في هذا الخلل كل من يعيش معهم في هذه البلاد من أديان ومذاهبَ أخرى. . فالقصور والخلل في نظام التفكير عند الانسان لا يختص بدين أو عرق أو ثقافة، بل هو مرض يعم المجتمع الغافل بأكمله .

وفي الفصول التالية سنبدأ بدراسة الفكر نفسه، لنعرف كيف نتعامل معه بأفضل ما يمكن .

(٨)
كيف يتشكل الفكر؟

من المنطقي عندما نتكلم عن الفكر أن نبحث في نشأته. كيف يتشكل وكيف ينمو ويتطور؟ ومن يساهم في هذه النشأة والتطور؟ لنعرف بوضوح عن ماذا نتكلم.

ونبدأ بخطأٍ شائعٍ بينَ الناس وهو: أنَّ الانسان هو الذي يُشكّلُ فِكرَهُ لوحده وباستقلالية تامّة عن محيطه وعن الآخرين.

والحقيقةُ أنَّ العشرات بل المئات من العوامل الداخلية والخارجية في النفس البشرية تساهمُ في تشكيل فكر الانسان بشكل مباشر أو غير مباشر.. وكثيرٌ من هذه العوامل لا دورَ لهُ فيها ولا سيطرةَ له عليها، وقد لا ينتبهُ لها أصلاً، وقد تكونُ بعضُ هذه العوامل الخفية التي لا ينتبه لها هي من أخطر العوامل في تشكيل فكرِه.

فكرُكَ هو أشبهُ ببستانٍ تملكُهُ أنت وحدك.. ولكن كثيرين غيرك بدأوا بالزراعة فيه قبلَ أن تتعلّمَ أنت كيف تزرعُ فيه، وقد يكون ما زرعوه في بستانك نافعاً لكَ وقد يكون ضاراً.

ولكنْ في النهاية أنتَ وحدكَ مالكُ هذا البستان وأنت المسؤولُ عنه، فإذا تنبّهتَ لهذه الحقيقة فعليك أن تبحثَ عن كل نبتةٍ ضارةٍ وتتخلصَ منها، ثمَّ تزرعُ نبتةً أخرى نافعةً مكانها.

ومن حُسنِ حَظِّ الانسان، وجميلِ قدرِ الله تعالى فيه أنه قادرٌ على هذا التغيير. وأنَّ بقاءَ الزرعِ الضارّ في بستان الفكر ليس حتمياً بل يمكن تغييره في أي وقتٍ.. إذا أرادَ صاحبُهُ ذلكَ وقرّرَ ونفّذ.

وسنذكُرُ أهم العوامل التي تشكّل الفكرَ البشري وليسَ كلها لأنها كثيرةٌ. ولكنَّ العوامل التي سنذكرها يشتركُ فيها كلُّ البشر على هذه الأرض لذا وجبَ أن نوليها الأهمية التي تستحقها ونتعرف عليها.

وبالوالدين نبدأ...

أولاً: الوالدان

يولدُ الانسانُ صفحةً بيضاءَ في فكره.. ويبدأُ النقشُ في هذه الصفحةِ بعد أن تبدأ حواسّهُ بالعمل مباشرةً.

ولا دخلَ للوراثة بتكوينِ الفكر.. فالفكر بالتعريفِ الذي ذكرتُهُ سابقاً لا يورَّث[٣٤]. فالإنسان يرثُ الصفاتِ الجسدية من والديه، من لونٍ وطولٍ وجمالٍ وقوامٍ، ولا تحكّمَ له في هذه الصفات الجسدية.. لكنه لا يرثُ فكراً.

وأول من يبدأ النقشَ في الصفحة البيضاء لتشكيل فكرِ هذا الضيف الجديد على الحياة، ورسم خريطة العالم في ذهنه هما أبواهُ.

وقد بيّنَ رسولُنا صلى الله عليه وسلم في حديث جامعٍ رائعٍ هذه الحقيقة الخطيرة فقال: (**كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ فأبواه يُهوّدانِه أو يُنصّرانِه أو يُمجّسانِه**).

صحيحٌ أنَّ هذا التوضيحُ النبوي خاصٌ بالمعتقد الديني.. ولكنه كذلك ينطبقُ على كل شؤون الحياة الأخرى، فالأبوان يرسمان لأولادهما الخطوط الرئيسة لحياتهم وأفكارهم.

---

٣٤ ـ الفكر كما عرّفتهُ سابقاً: هو التصور الشامل الكلي للعالم في عقل الانسان بما فيه من تفاصيل، والذي تُشكله وترسمه في عقله مرئياته ومسموعاته وحواسه الأخرى.

وخطأُ الوالدينِ في هذا النقشِ الأوليّ لا يُغتفرُ ولا يُستدركُ الا بصعوبة بالغة. . فهذا أولُ وضعِ بذورِ الفكرِ في تربةِ العقلِ الخصبةِ الخاليةِ، ومن يزرعُ بذورَ العلقمِ(٣٥) لا يَرتَجي جَنْيَ العنبِ.

وإليكَ مثلٌ واحدٌ على خطأ من عشرات الأخطاء:

كثيراً ما كنتُ أسمعُ الشكوى من بعض الآباء والأمهاتِ من سلوكِ أطفالهم وعنادهم وهم لا زالوا في طورِ الطفولة، بحيث يصلُ هذا العنادُ الى وضعهم في مواقف محرجةٍ أمام الضيوفِ أو مع الغرباء أو مع الجيران. . .الخ. ولا يستطيعون فعل شيءٍ أمام هذا العناد إلاّ الاستسلام لطلباتِ أطفالهم، في دورٍ معكوس بالضبط، فالطفلُ هو الذي يُملي ما يريدُ والآباء ينفّذون.

ومثلُ هؤلاء الآباء يعتقدونَ عادةً أن الطفلَ الصغير كائن بريءٌ يلهو ويلعب فقط، ولا يزالُ الوقت مبكراً عليهِ للتعليمِ والتهذيب والتربية. . وكنت أقول لهم إن الطفلَ إذا استطاعَ أن يمشي وأن ينطقَ الأحرف الأولى، ولم ترَسُما له أنتما (أي الأب والأم) بدايات الطريق الصحيح في فكره وسلوكه فقد فاتَ الأوان، ولن يعينكما الا الله تعالى على تدارك ما فرّطتّما فيه.

٣٥ ـ ثمرةُ شجيرة الحنظل، ويضربُ بها المثلُ لشدةِ مرارتها.

والآباءُ من هذا النوع يخلُطونَ خلطاً سيئاً بين الرحمة للولد[٣٦] وبين تربيته وتشكيلِ فكرِه. فيبتعدون جهدهم عن أيّ مظهرٍ أو فعلٍ قد يسِمُهُم بالقسوة والغلظةِ مع اطفالهم، وفي اعتقادهم أنَّ هذا نوعٌ من الرحمة واللطفِ وحسنِ التربية وسوف يحبّبُ أولادهم فيهم.

وهؤلاء حالهم بالضبط كحال من يمتنعُ عن سَقي ولده المريض الدواءَ المرَّ لأنه لا يستسيغه، أو يرفضُ استعمال حقنة في العضل لأنها تؤلمُ ولده. فهل مثل هذا يحقُّ له أن يتفاجأ إذا ماتَ ولده بين يديه؟!

لا يُفهم من كلامي أنَّ القسوةَ الظاهرةَ في التأديب هي الأسلوب الأوحد في التربية.. لكنْ أحياناً لا بدَّ مما ليس منه بُدٌّ.. فالإنسانُ بطبعهِ وفطرتهِ يعيش حياتَهُ بين الرغبة والرهبة، وإذا اقتصرَ في حياتهِ على أحدهما هلك. فهما كجناحي الطائر، وقد تعبَّدَنا الله تعالى بالرغبة والرهبة وهو القادرُ على كلِّ شيء، فكيفَ بنا نحنُ القاصرون مع أولادنا؟

---

٣٦ ـ كلمة الولد تطلق على الأبن والبنت.. فحيثما وردتْ في هذا الكتاب إنما أعني بها الأبن والبنت على حد سواء.

ومع ذلك على الأب أن يكون متوازناً منصفاً حكيماً عندما يكافئُ أولاده أو عندما يعاقبهم، وسيفهمون تدريجياً أن حبّهُ لهم هو الذي يُجبره أحياناً على عقابهم.. كما أن حبّهُ لهم يَظهرُ في مكافأتهم وتكريمهم.

واعلم أنَّ القيمَ والأخلاقَ والسلوكَ تُخَطُّ خطوطها الأولى في – الفكر– ابتداءً من السنة الأولى من عمرِ الطفل.. فإن أهملتها في هذه الفترة من عمرِ أولادك فلا تلومنَّ الا نفسك.

في فترة الطفولة على الوالدين أن يبتعدا عن المصطلحات التي لا يستوعبها عقلُ الطفل الغضِّ. فلا يجوز الاكثار من مصطلح الحلال والحرام، أو الجنّةِ والنّار، لأنَّ الطفلَ لا يعي هذه المصطلحات، وإذا كُرّرتْ على سمعهِ بلا فهمٍ سيألفُها ثم لا يهتمُّ بها بمرور الزمن.

لكنَّ الطفلَ بالمقابل يَعي ويفهمُ جيداً زجرَ الأبِ والأم له، ونهيَهُ عن عمل ما، سواءً باستخدامِ صوتٍ أم سلوكٍ. لذا يحسنُ بكَ أن تُعوّدَ طفلك على إشارات وتعابير تظهر على وجهك وفي صوتكَ يفهمُ منها أنك سعيدٌ وراضٍ بفعلهِ أو أنكَ غاضبٌ منهُ. وستبقى هذه التعابير كافيةً لك وله حتى بعد أن يكبُرَ عقلُهُ ويزداد فَهمُهُ.

تأسيسُ الفكرِ عند الطفل كوضع أساسٍ للبناء . . فيجب أن يكون الأساس قوياً وصحيحاً ، وإلا لن يَصحَّ أيّ بناء فوقه بعدُ .

وكذلكَ مِن أوّلِ ما يؤسَّسُ في فكر الطفل أنَّ هناك حدوداً لرغباته وطلباته لا يُسمحُ لهُ بتجاوزها مهما حاول . . وأن هناك تصرفاتٍ خاطئةٍ لا يجوزُ أن يفعلها وإلا سيُعاقب، وأن هناك تصرفاتٍ حسنةٍ نشجّعهُ عليها ، ولكن ليسَ بالضرورة أن يُكافأ عليها بشيءٍ ماديٍ.

أما تركُ الطفل يفعل ما يشاءُ وقتما يشاءُ، وتنفيذُ كل رغباته وإلا سيبكي ويصرخ، والتغاضي عن كلمةٍ أو تصرف سيء يقوم به. فكل هذه التصرفات واشباهها ستؤسّسُ في فكر الطفل مساراً خاطئاً وهوَ أن بإمكانه أن يفعل ما يشاءُ في هذه الحياة، وأن بإمكانهِ أن يحصلَ على ما يشاء . وعندما يكبرُ سيرهقُ أبويهِ برعونته أولاً، ثمَّ ستصدمُهُ الحياة بحقيقتها ولن ينجح في التعامل معها ثانياً . لأنَّ الحياة لا تُعطي لكل طالبٍ ما طلبَ.

ثانياً: الأسرة

الأعمام والعمات، والأخوال والخالات وأولادهم، والجد والجدة، وكل من يدخل في نطاق ما نسميه الأسرة والأقرباء سيساهمون في نقش خارطة الفكر في العقل الطفولي بشكل أو بآخر.. وأركزُ هنا خاصةً على الجدّ والجدّة – في حال حياتهما– لأنهما عادةً ما يحتويان الطفل بالتدليل أكثر من والديه، وأخطر من هذا أنهما قد يقفان عائقاً أمام الوالدين لتربية وتعليم أطفالهما، ويتدخلان بشكل قد يضرُّ أكثر مما ينفع.. وهذا ما يجب أن ينتبه له الأب خاصةً، لأن الأم موقفها ضعيف وليّن تجاه الطفل، وقد تسكتُ عن تدخل الأجداد والأقارب حباً بطفلها وبهم. وهذا يُلقي على الأب لوحده مسؤولية الحدِّ من هذه التدخلات إن كان بلطف ولين أو بصرامة إذا تطلب الأمر.. فالأطفال امانة لا يجب السماح لأحد أن يضيّعها مهما كان موقعه.

والأب الذي يتغاضى عن خطأ طفله حين يهرب منه ويلجأ لحضن جده وجدته..

والأب الذي يتغاضى عن أحد أقاربه عندما يتكلم بكلام سيء أمام هذا الطفل..

والأب الذي يتغاضى عن سلوكيات خاطئة يقوم بها أطفال آخرون من الأسرة أمام هذا الطفل، أو يتبادلون معه كلاماً بذيئاً . .

هذا الأب سيندم في المستقبل القريب، وسيشكو لك وللآخرين: لماذا يتصرف ابني أو ابنتي بهذا السوء وقد ربيتهم أحسن تربية؟

في الحقيقة أيها الأب قد يكون نقشك صالحاً في عقل ولدك لكنه اختلط بنقوش الآخرين، والماء لا يبقى صافياً إذا خالطه الطين والقذر.

الأسرة القريبة تُربّي . . وهذا ما يغفل عنه الكثيرون من الآباء خاصةً الذين لا يعيشون في مسكن مستقل، ويكون الاختلاط مع باقي الأسرة مفروضاً عليهم.

الأسرة والأقارب يساهمون في تشكيل الفكر عند الانسان وبشكل فاعل ومؤثر لا ينبغي إهماله وإلا كانت عواقبه وخيمة.

ثالثاً: المدرسة والمجتمع

ينتقل الطفل في عامه السادس الى بيئة جديدة عليه بالكلية. سيخرجُ من المحضن الصغير الذي عاش فيه، ودرجَ ضمن حدوده، طيلة السنوات الأولى من حياته وهو البيت والأسرة الى عالم غريب عليه وجديد في كل شيءٍ، جديد في المكان والأثاث، وفي الأفراد الذين يشغلونه من طلاب ومدرسين.

سيختلط بأطفال من عمره وآخرين أكبر منه في مكان واحد، وكل طفلٍ من هؤلاء جاء من أسرة مختلفة في عاداتها وسلوكياتها وافكارها.

كما سيجدُ أمامه رجالاً (المعلمون) يختلفون عن أبيه وعن رجال اسرته الآخرين، يأمرون وينهون ويعلمون وربما يعاقبون ولديهم سلطة عليه لم يألفها من قبل.

سيختلط بأطفال متمردين مشاكسين قد يتنمرون عليه بلا سبب ظاهر ويؤذونه، وبالمقابل سيختلط بأطفال ضعفاء (أضعف منه) قد يتنمرُ هو عليهم ويؤذيهم.

ستتغير يومياته من اللهو واللعب الى الالتزام والصرامة في الحضور والدراسة والامتحان...الخ.

كل هذه الخلطة العجيبة التي ستواجهُ الطفل من يومه الأول في المدرسة ستخطُّ خطوطاً جديدة وتنقش نقشاً كثيراً في فكره الذي سيتوسع أكثر لأنه بدأ يرى عالماً أوسع بكثير من عالمه السابق. . وسيبدأ باختبار الخير والشر والأخلاق والقيم التي تعلّمها في البيت، وسيكتشف أن بعضها موجود عند الأطفال الآخرين وبعضها مفقود، ولن يستطيع أن يفسرَ لماذا هذه الاختلافات بينه وبين الآخرين وهو في هذا العمر. . ولن يستطيع أن يفهم أن كل طفل معه قد بُني بناء مستقلاً عن بنائه هو، قد يتفق معه قليلاً ويختلف معه كثيراً .

لذا يبدأ كل طفل بالبحث عن – آخرَ- يتوافق معه ولو بالحدّ الأدنى من الصفات والخصائص ويلازمه ليصنع أول علاقة بشرية جديدة يتعرف عليها أسمها (الصداقة) .

وهذه الصداقة ستُسهم في تشكيل فكر الانسان في طفولته بحسب قوتها وضعفها . . ولذا قيل في الأمثال " الصاحبُ ساحب" .

وكلما تقدم الطفل في سنوات الدراسة كثرت صداقاته وبعضها يثبت على مرّ السنين وبعضها يتغير. . ولكن في كل الأحوال سترسم هذه الصداقات جزءاً لا يستهان به من فكر الانسان في مرحلة الدراسة وتؤثر فيه .

وكذلك تؤثرُ شخصيات المعلمين في فكر الانسان من سنواته الأولى الى أن تنقطع صلته بالدراسة.

فكثير من المعلمين لهم شخصيات مؤثرة على الطالب قد تتضخم لتتجاوز تأثير الأب والأم. وهؤلاء المعلمون المؤثّرون بأخلاقهم وعلمهم وحسن سلوكهم مع طلابهم، يرسُمون في فكر الطلاب نموذجاً رائعاً لعالم تسوده الأخلاق والفضائل وحب العلم.

والعكس صحيح فقد يُفسدُ معلمٌ مستهتر واحد أخلاق المئات من طلبته، ويرسم في أفكارهم نموذجاً لعالم يسود فيه الجهل والسخف والغش. والطفل غير محصّن من التأثر سلباً وإيجاباً بشخصية معلمه ولو بالحدود الدنيا.

وكذا النظام التعليمي يفعلُ بأفكار الانسان في مرحلة الدراسة ما يفعله الصديق والمعلم.

فالنظام التعليمي القائم على مجرد الحفظ والاسترجاع لضمان النجاح في الامتحانات وتحصيل الدرجات كما هو في أنظمتنا المتخلفة، يبني فكراً جامداً متحجراً لا يخرج عن النص خوفاً من الرسوب.. ويخرّجُ أجيالاً من العقول المتقولبة التي لا تجرؤ على الالتفات يميناً أو شمالاً وشعارها:

﴿.. إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾

وهذا الفكر الجامد الذي يُصنَّع تصنيعاً في أنظمتنا التعليمية هو الذي يُخرِجُ لنا شعوباً تنقاد لأحقر البشر، وتنخدع بأراذل الناس، وتُساق الى المحرقة بإرادتها، وتُسرق جهاراً نهاراً، ولا تقوى على مجرد الاعتراض.. فهل يحق لنا أن نسأل بعدَ هذا لماذا تعيش شعوبنا هذه المآسي!؟ وكيف المخرج؟

وبعكس هذا النظام التعليمي المتخلف.. يوجدُ النظام التعليمي الذي يصنع فكراً ناقداً متحرراً.. لا ينقادُ للنص المدرسي الجامد.. والذي يحفزُ العقول ويثري الأفكار، ويدفع الطالب للسؤال وتحريك ذهنه في كل ما يقرأ ويشاهد ويسمع.. وهذا النظام سيرسّخُ في فكره قاعدةً مهمةً ستلازمهُ طول حياته وهي:

أن لا تكون حياته ردود أفعال سريعة على ما يحصل حوله، بل يتأنى حتى يفهمَ أولاً كل ما يسمعه ويبصره ويحسّه، وبعد الفهم يتّخذُ القرار.

وهكذا تُصنع الشعوب الواعية.. من صناعة الفكر أولاً.

مرحلة الدراسة بما فيها ومن فيها تُشكل جزءاً لا يستهان به من فكر الانسان.. وهذا التأثير يظهرُ على من يدخل مساقاتها ويعيش نظامها.

ولكن ما حالُ الطفل الذي يُحرم من فرصةِ الدراسةِ؟ هذا الطفلُ سيُشكَّلُ فكره حسب العالم الذي سيقضي فيه طفولته في المجتمع.. قد يكون هذا العالم هو عالَمَ البداوة والقبيلة، أو عالَم الزراعة، أو عالم المهنة التي يعملُ فيها الأب، أو عالم الشوارع والتسول، وحتى عالم الجريمة واللصوصية.

وعشرات غيرها من العوالم التي قد يعيش الطفل في إحداها هي التي سترسم في فكره الطريق الى المستقبل أياً كان، وسترسم في عقله شكل العالم الذي سيعيش فيه.

رابعاً: المعتقدات والقيم والمعايير

العقيدة: هي أمرٌ يستقر في قلب الانسان ويعتبره يقيناً، فلا يطفو الى العقل لمناقشتهِ مرةً أخرى أبداً.

والعقيدة لغةً: هي العقدةُ العصيّة على الحل

والمعتقدات بمعناها اللغوي العام تشمل الدين وغيره من أمور أخرى في الحياة والتي تستقر كيقين نهائي جازم في عقل الانسان وقلبه ولا يكون مستعداً لمناقشتها أصلاً.

وسنتناول بعض هذه المعتقدات بالتفصيل.. ونبدأ بالدين.

الدين من العوامل المهمة والخطيرة في تشكّل فكر الانسان، بل هو من أخطر العوامل المؤثرة في الفكر وتكوينه، وهذا واقع مشاهد لا يحتاج الى التدليل عليه.

فالإنسان بفطرته حتى ولو كان ملحداً يدرك أن هناك قوة عظمى تقود هذا الكون بما فيه.. وهذا الادراك يشمل جميع بني آدم.. ولكنهم يختلفون عندما يريدون أن يحدّدوا ما هي هذه القوة العظمى وما هو اسمها وما هي صفاتها.

والله تعالى أرسل الرسلَ لتعريف الناس بأسمائه وصفاته جلَّ وعلا وأنه هو الخالق الفرد الصمد، بعد أن طال عليهم الأمدُ ونسوا هذه الحقيقة ودخلتْ عليهم الخرافات فعبدوا من دونه مخلوقات مثلهم سواء كانت أحجاراً أم أشجاراً أم حيوانات. . . الخ، وإن لم يجدوا ما يعبدونه عبدوا أنفسهم وعقولهم.

ولذلك لا يخلوا الانسان من دين يدينُ به، حتى لو أنكر ذلك كما يفعل الملحد، فدينه هو فكره وعقله.

وخطورة الدين في شيئين:

١- أنه يتطلب الايمان بعبادات وبغيب لا يمكن التدليل عليه بالعقل لوحده غالباً، فتكون قوة الايمان مرتبطةً بقوة الثقة بالرسول فقط لا غير. فلم يؤمنْ من آمن بالإسلام وغيره من الأديان السابقة بأدلة عقلية مفحمة بل بثقتهم بالرسول وصدقه وأمانته وأنه لا يخدعهم فيما يقول. . فقط.

ولذلك كانت أول صفة وصفها الله تعالى للمتقين في أول سورة البقرة قوله تعالى:﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

فلا دينَ بلا ايمانٍ بالغيب. وهذا الايمان سلاح ذو حدين، استخدمه رجال الدين المنحرفون - في كل الأديان- وحرّفوا الكلم عن مواضعه وأضافوا وحذفوا

وشوّهوا الدين بحجة الايمان بالغيب. وقادوا البسطاءَ الى المهالك ولا زالوا يفعلون، لأن هؤلاء البسطاء يثقون بأحبارهم ورهبانهم ومشايخهم ولا يتحققون من كلامهم.

٢- والخطورة الثانية في الدين أنها تفسّرُ وتوضح لك حقيقة من حقائق الوجود، وهيَ أن هناك حياةً أخرى ليست كهذه الحياة، وأن أهم ميزة فيها هي الخلود.. فالإنسان أيّ انسان يدرك يقيناً أنه سيموت يوماً ما وهذه الحقيقة يراها كلَّ يوم ولا يحتاج للتدليل عليها.. لكنه يحسُّ في نفسه احساساً غامضاً يحبّبُ اليه الخلود وعدم الفناء، فان كان سيموت ولا بد فإلى أين بعد ذلك؟!

وهذا ما أجابت عنه الأديان السماوية بوضوح.. إلى أين بعد ذلك؟

بعد ذلك.. سيكون هناك حساب وثوابٌ وعقاب على ما فعلَ هذا الانسانُ في هذه الدنيا من خير وشر، وعلى ما وافقَ فيه تعاليم دينهِ أو خالفها.. وأن المكان الذي سيؤول اليه سيُخلّدُ فيه، وليس بعد الموت فرصة للتراجع أو المراجعة.

وهذا ما يجعلُ هذا الانسان المحبِّ للخلود أن يصبغ فكره وبالتالي كلَّ حياتهِ بالدينِ الذي يؤمن به وبتعاليمه، ويقاتل في سبيله، ولا يفكرُ للحظة من الزمن أن يراجعَ فعلهُ مهما كان مؤذياً للآخرين.

لذا كانت رايةُ الدينِ من أنفع الرايات في توسّع الامبراطوريات عبر التاريخ.

هكذا فعلت أوربا الصليبية وهكذا فعلت الامبراطورية العثمانية ومن قبلهما دولة بني أمية وبني العباس. ولا زالت هذه الراية هي الفعّالة المؤثرة أكثر من جميع الرايات.

ولكن الدين (أي دين) هو نصٌّ وتفسير.. والنص المقدّس لا كلام فيه، لكن تفسير هذا النص من قبلِ الأتباع (وخاصةً المتأخرين) الذين لم يعايشوا النبوة والوحيَ، هو الذي يتطلب الكلام الكثير.

وتبدأ المشاكل عندما يكتسب التفسيرُ البشريُّ نفس قداسة النص الإلهيّ، هنا تكون بداية المهالك وهنا يتخبط الفكر.. وهذا ما يفعله الدجّالون في كل الأديان، حينَ يسعونَ لبناء أفكار أتباعهم، فيقنعوهم بقدسية التفسير للنصِّ، ويُلبسونهُ قداسةً تفوق أحياناً النصَّ نفسه.

هذا ما يخصُّ الدينَ..

أما المعتقدات الأخرى بالمعنى اللغوي الأشمل للمعتقد فهي أيضاً تُشكّل الفكر الانساني لأزمان متطاولة قد تمتدُّ لقرون من الزمان الى أن تبطل هذه المعتقدات بأمر ما، وتحلُّ محلها معتقدات جديدة.

فمثلاً كان البشر يعتقدون أن الأرض هي مركز الكون، حتى تبين خلاف ذلك فتغير الاعتقاد.

وكانوا يعتقدون حسب نظرية ارسطو أن الجسم الثقيل يسقط أسرع من الجسم الخفيف حتى ابطل هذا الاعتقاد غاليلو جاليلي بفرضيته عن تساوي سرعة السقوط الحرّ للأجسام مختلفة الكتلة.. وتم أثبات هذه الفرضية في العصر الحديث عند اجراء التجربة في حيّزٍ مفرغ من الهواء.

ومئاتُ المعتقدات الأخرى في الطب والصحة والفلك والصناعة والزراعة تغيرت بتقدم العلم والتقنية ووسائل الاختبار والكشف.. مثل هذه المعتقدات شكّلت الفكر الانساني لقرون عدة، ورسمت لهم عالماً هو غير عالمنا اليوم.

وأحياناً عندما تقرأ في التأريخ ما كان عليه الناس آنذاك من أفكار ومعتقدات قد تضحكُ من حالهم ومعتقداتهم.. وربّما ستأتي بعدنا أجيالٌ تضحكُ من أفكارنا التي نعيشُ بها في عصرنَا هذا !!.

ولكن هكذا يتشكّلُ الفكر ويتأثر بالمعتقد. ولا زالت الكثير من المعتقدات في عالمنا اليوم مؤثرة وفاعلة بين معتنقيها بغض النظر عن كونها (في نظرك) تافهة أو خيالية أو مخالفة للعلم والمنطق.

ففي الهند وحدها ما يقارب (١٨٩) ديانة، ويكاد كل شيء فيها قابلٌ للعبادة حتى الجرذان.

ولا زال الكثير من البشر يعتقدون أن الأرض التي نعيش عليها مسطحة، ويحبّرونَ لك عشراتِ الأدلّة على الورق ومئاتِ الفيديوهات على النت ليقنعوك بذلك!! وغيرها كثير.

القيمُ:

القيم هي سلوكيات تعتقد أنت بصحتها وتطالب الآخرين بها.. مثل الصدق والأمانة والوفاء والشجاعة... الخ

فهي أمور تطبيقاتها مشاهدة وليست غيباً، تُلزم نفسك بها وتطلب من الآخرين أيضاً أن يلتزموا بها.. فالقيم الفاضلة بصورة عامة يُجمع البشر على أهميتها والالتزام بها.

ولكن هذه القيم لا تأخذُ في فكر الانسان نفس التسلسل في الأولوية.

وهنا يبدأ الخلاف في نظم التفكيرِ بين البشر، والذي يقود الى خلاف كبير في السلوك.

فالإنسان الذي يعيش في بيئة تُركز على الصدق في كل شيء حتى ولو كانت نتيجةُ هذا الصدقِ مؤذيةً له، سيتشكل فكره على هذا، وستأخذ قيمة الصدق عنده الأولوية الأولى.

وعندما تتعامل مع فرد من هذا النوع من الناس يجب أن تتوخى الحذر.. كُنْ من تكون وافعل من الفضائل ما تفعل وأحسن اليه بقدر ما تستطيع..

ولكن.. إذا كذبتَ عليه مرّةً واحدة فسوف يمسحُ تاريخك الناصع معه كله.. لماذا؟

لأنه من خلال نظامه الفكري سيحكُمُ على كل من يكذب أنه لا خير فيه، وسيحكم على أعمالك الفاضلة كلها أنها كانت نوعاً من الكذب.. فالصدق عنده فوق كل شيء.. ولا شيء يشفع لك لتكذب.

وهكذا الحالُ مع من تحتل قيمة الأمانة الأولوية الأولى في فكره.. كُن أميناً بالدرجة الأولى ثمَّ تأتي بقية الفضائل.

ومن تحتل قيمة الشجاعة الأولوية الأولى في تفكيره.. كن شجاعاً أولاً، وإلاّ لا تنفعكَ كلُّ فضائل البشر... وقس على ذلك.

المعايير:

المعايير هي أمور تفضلها وتراها أنت صالحة لك، ولكنكَ لا تلزم الآخرين بها .

فمثلاً قد يكونُ معيار الجمال عندك هوَ الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، ومعيار اللون المحبب لك هو الأبيض، ومعيار الملابس المريحة هي القميص والبنطال. . هذه معايير تفضلها أنت. وليس بالضرورة أن تكون مفضلة عند الآخرين، فلهم أيضاً معايير أخرى.

ومع أنَّ هذه المعايير خاصة بك، لكنها ستشكل فكرك وعالمك بصورةٍ تجعلُ عقلكَ يرتاحُ الى البيئة التي توافق معايره هذه، وينفرُ من البيئة التي لا توافق مع هذه المعايير.

فمثلاً: الذي يرتدي الرداء العربي الفضفاض يرتاح بالجلوس مع أناس يرتدون نفس الزي. . والذي تعود على ارتداء البدلة الغربية يرتاح بالجلوس مع أقرانه الذين يرتدونها . . وهكذا

خامساً: قصور الحواس

حتى يدركَ الانسان الأشياء والحوادث تمرُّ كل المعلومات الى عقله عبر الحواس المعروفة وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس والإحساس الحركي.

ولكن هذه الحواس بطبيعة خلقتها تكون قاصرةً ولها حدودٌ عليا وحدود دنيا لتدركَ ما يقع ضمن نطاقها. وهذه الحدود مخلوقةٌ بحكمةٍ بالغة لتخدم حياة هذا الانسان كي يستطيع العيش بصورة سوّية مريحة.

تخيّل مثلاً لو كان بصرك قوياً الى درجة أنك ترى الجراثيم وترى ذرات الترابِ في طعامك.. لن تأكل شيئاً أبداً. وتخيل لو أنك تستطيع سماع الأصوات الصادرة من بُعد مئات وآلاف الأمتار لن تستطيع النوم أو الشعور بالهدوء. وقِسْ على هذا بقية الحواس. فكونها محدودةٌ هي نعمةٌ كبيرة تجعلنا نعيش بهدوء ودون منغصات عندما نرى ونسمع ما لا حاجة لنا به.

ولكن هذه الحدود للحواس مع فائدتها توقعنا في الكثير من المشاكل عندما نتكلم عن الفكر وكيف يُبنى وكيفَ ينشأ. لأنَّ ادراكنا لن يكون كاملاً لأي شيءٍ بسبب قصور هذه الحواس.

فمثلاً . . . إذا مررتَ بحادثة تصادمٍ بين سيارتين في شارع مزدحم، وسألت افراداً ممن رأوا الحادث: ما الذي حصل؟ ومن المذنب؟ ستسمع أجوبةً مختلفة بعددِ من سألتهم.

والأمر سيكون أعقد إذا سألت من – سمعَ – عن هذا الحادث ولم يره فسوف تسمع أجوبة أخرى.

نعم قد يتّفقون في أصل الحادث . . أن التصادم وقع بين سيارتين . . ولكن سيختلفون في التفاصيل . بسبب أنَّ كلَّ واحدٍ منهم أدرك الأمر مشاهدةً أو سماعاً حسب دقة حواسهِ في تلقي المعلومة وتحليلها .

وقصور الحواس هو الساحة التي تلعب فيها كل وسائل الاعلام لتمرير أفكارها وخطط مموّليها . فأحياناً تضخّمُ الأمور وتعرض لك مظاهرةً تسميها (حاشدة) وبعد التدقيق يتبين أنها من خمسين شخصاً تم تصويرهم بأسلوبِ هوليوود .

أو تسطّحَ الأمور فتعرض لك مقابلات مع شخصين أو ثلاثة متفرقين، في مظاهرة مليونية، كي تقنعك بأن لا تأثير لها .

لذلك علينا تعديل المثل القديم الذي يقول "لا تصدق كل ما تسمع" الى "لا تصدق كل ما تسمع وترى".

فالسمع يُخدع والبصر يُخدع وحتى المشاعر والأحاسيس تُخدع بالكلام المزيف.

ومن الطريف في هذا الموضوع أن شاعراً من شعراء الأندلس فطنَ لهذه المشكلة قبل ما يزيد على تسعة قرون من زماننا هذا، مع أنه كان أعمى، لكنه كانَ ذو قلبٍ بصير. اسمه أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي ويلقبُ بالأعمى التطيلي[٣٧]، وهو شاعر ووشّاحٌ أندلسي عاش في عصر المرابطين، وقضى معظم حياته في إشبيلية، وتوفي عام ٥٢٥ هـ.

يقول في بيتين من قصيدةٍ لهُ:

فانظُرْ بِعَقْلِكَ إنَّ العينَ كاذِبَةٌ . . . واسْمَعْ بِحِسّكَ إنّ السّمْعَ خوّانُ

ولا تقُلْ كلّ ذي عينٍ له نظرٌ . . . إنَّ الرعاةَ ترَى ما لا يَرى الضّانُ[٣٨]

٣٧ - قال ابن بسام عنه في الذخيرة: «له أدب بارع، ونظر في غامضه واسع، وفهم لا يُجارى، وذهن لا يُبارى، ونظم كالسحر الحلالِ ونثر كالماء الزلال.»
كما قال عنه ابن خلدون في مقدمته: «التُّطيلي سابق فرسان حلبة الوشاحين في دولة المُلَثَّمين»

٣٨ - ديوان الأعمى التطيلي - تحقيق د. محي الدين ديب – ص ٢٣١

وعموماً فقصور الحواس من مشكلات الفكر البشري التي يجب الانتباه اليها ومعالجتها بتدريب الحواس حتى تكون أكثر دقةً قدر المستطاع. وهذا التدريب هو ما نسميه (ارهاف الحواس) وسنأتي على شرحه فيما بعد .

وكذلك نعالجُ هذا القصور في الحواس بالسؤال المتكرر، وبالنظر الى الأمور من عدة جهات، وبالسماع الى وجهات النظر المختلفة، وبالتدقيق والتحقيق المستمر وخاصة في الأمور الهامة التي يتوقف عليها مستقبل الانسان وسعادته في حياته ومعاده.

وقبلَ هذا وذاك يجبُ أن ننتبه دائماً الى أنَّ حواسنا قاصرة، وقد تخدعنا، وأن لا نأخذ كلَّ الأمور كمسلمات لا تقبلُ الجدل.

(٩)
كيف يعمل نظام التفكير عند الإنسان

الفكر كما قلنا نظام معقد مكتسب، يبدأ بالتكون عند الانسان مع بدء عمل حواسه في يومه الأول في هذه الدنيا . . ويستمر بالتشكل والتطور ولا يتوقف عن التشكل والتغير والتطور في تفاصيله حتى يموت هذا الانسان. . فهو في تفاعل وتشكل دائم ما دام الانسان حياً . . وهذا الفكر بمجمله وتفاصيله هو القائد لحياة هذا الانسان والموجه له.

فهو الخارطة التي تحدد له الطرق التي سيسلكها في حياته. . وما دام الانسان مقتنعاً بهذه الخارطة (فكرِه) فسيعيش في حدودها، ولن يحيد عنها، ولن يستطيع أحد أن يقنعه بالحياد عنها، أو يقنعه بأن فيها خطأ ما . . ما لم يقرر صاحبها بنفسه أن يعيد النظر في هذه الخريطة (أفكاره) جزئياً أو كلياً .

وأحياناً تنبّهُ بعض الكوارث والمصائب المفاجئة هذا الانسان الى ضرورة اعادة حساباته، ومراجعة أفكاره. . ولكن هذه النوعية الحساسة من البشر قليل.

وأحياناً يفيد بعض الكلام العاطفي من شخص مؤثر في جعل الانسان يعيد حساباته ويراجع فكره، ولكن هذا النوع من البشر أقل من السابق بكثير.

والغالب الأعم من البشر يسير حسبَ المنظومة الفكرية التي تشكلت في عقله الى الموت ولا يبالي ولا يتوقف ولو لحظة لمراجعة حساباته.

وهذه هي خطورة المنظومة الفكرية عندما لا يتنبه الانسان الى ضرورة مراجعتها بين حين وآخر ليتأكد أنه لا يزال على الطريق الصحيح.. فالإنسان يقتنع بأفكاره ويتأقلم معها ببطء وبمرور الأيام، ويقتنع بأن العالم الذي صنعته أفكاره هو النسخة الصحيحة التي يجب أن يسير عليها كل البشر، وأن من يخالفها هو المخطئ، وكلما حقق مكاسب وأهدافاً في الحياة ترسخت قناعته اكثر بنسخة العالم المرسومة في ذهنه.. وحتى عندما تصيبه عثرات وإخفاقات فانه لا يشكُّ بفكره واحتمال وجود خطأ ما في هذا الفكر، ولكنه يحمّلُ الآخر مسؤولية هذه العثرات وهذا الفشل. فهو في يقين دائم أنَّ ما هو عليه هو الحق دائماً، لكن تدخّلَ العوامل الخارجية ومؤامرات الأعداء هي التي تسبب له المشاكل!!

فالمشاكل في منظومته الفكرية هي دائماً منشأها (هناك) عند الآخر وليست (هنا) في فكره.

لذلك وعَوْداً على بدء نقول: إن اصلاح الفكر ليس عملاً هيناً يكفي فيه تأليف الكتب والمحاضرات والمواسم الثقافية.. بل هو عمل شاقٌ يتطلب إحداث ثورة في العقول تنبه الناس أولاً الى ضرورة مراجعة أفكارهم.. وأن ما يحملونه من فكر ليس هو الحق الذي لا يتطرق اليه باطل.. بل قد يكون أحياناً هو الباطل بعينه.

وتشكيك الانسان بفكره، ومراجعته له، هو أقرب الى عملية جراحية كبرى يجريها الانسان لدماغه ومنظومة أفكارِه بنفسه.. وهذا يتطلب الكثير من الشجاعة والصبر والتعلم والفهم والكياسة وتحمل الألم الذي سيحصل بعد أن تتكشّفَ لهُ الحقائق المؤلمة.

ولكن الجانب المشرق في الموضوع أن الانسان بإمكانه دوماً وفي اي وقت يشاء أن يقوم بهذه المراجعة والتصحيح، ولا يستطيع أحد أن يمنعه من ذلك، ولا يوجد أمامه أي عائق إلا إرادته هو. فإن أرادَ المراجعة والتصحيح فعل.

وقبل المراجعة واثناءها وبعدها يجب أن لا يغفل الانسان عن الاستعانة بالله تعالى والدعاء الخالص الخفي أن يهديه الى الصواب فيما يقول ويفعل. فالهدي الرباني

يسهِّلُ الصعب ويقرب البعيد ويكشف الخفي، ولا يستغني عنه أي باحث عن الحقيقة.

والفكرُ كأي منتج بشري يتعرض للاستهلاك والتآكل فيتطلب التجديد دوماً، ويتعرض للأمراض فيتطلب العلاج.. وسنفصل الكلام في بعض أمراض الفكر لاحقاً.

آلية عمل نظام التفكير

بمجرد أن تبدأ حواس الانسان بالعمل بعد ولادته، يبدأ العقل بشقيه الواعي واللاواعي باستقبال المعلومات من المحيط.

العقل الواعي هو العقل المنطقي الذي يعمل خلال فترة استيقاظ الانسان ووعيه لما يدور حوله، وهو المسؤول عن اتخاذ القرارات في كل شيء يحتاجه الانسان في يومه وفي غدهِ.

العقل الواعي يستقبل المعلومات ويحللها، ويتخذ القرارات، ويرسم الخطط، ويقود سلوك الانسان المدرك المختار.. وبه يُحاسَب الانسان قانوناً وشرعاً.

ولكنَّ هذا العقل الواعي يتعبُ عندما يتعرضُ للإجهاد، فيتشوش وقد يخطئ في قراراته وأحكامه، لذلك يحتاج الانسان الى الراحة والنوم أو الاسترخاء والتأمل، ليستعيد العقل الواعي نشاطه.

وحينما ينام الانسان يتوقف العقل الواعي عن العمل مؤقتاً ليقوم الدماغ بإعادة ترتيب المعلومات والتخلص من التشويش الذي سببه الاجهاد، ليستعيد العقل

الواعي نشاطه وقدرته على مواصلة العمل بعد الاستيقاظ واخذ قسط كافٍ من النوم.

وكما يحتاج الجسد للراحة فالعقل الواعي يحتاج للراحة يومياً وإلا تشوش في عمله وفقد القابلية على التعامل الصحيح مع المحيط.. وهنا يأتي دورُ الاسترخاء الذي يساعدك كثيراً على اراحة العقل الواعي وخاصةً في الأوقات التي لا تستطيع النوم فيها، أثناء العمل مثلاً.

ومهارة الاسترخاء بسيطة يمكن لك أن تتعلمها بسهولة ويسر وتمارسها في أي مكان وأي زمان تشاء، وهي فعالة جداً في تنشيط العقل الواعي، ولكن يبقى النوم شيئاً لا بد منه ولا يمكن الاستغناء عنه لإراحة عقلك الواعي وتنشيطه من جديد.

أما العقل اللاواعي فهو على العكس يبقى على فاعليته في اليقظة والنوم ولا يحتاج للراحة، فهو مخزن كبير للمعلومات التي تردُ من الحواس، وهو الذي يزود العقل الواعي بكثير من المعلومات والأحاسيس التي مرّت به ولم يركز عليها. وبذلك يكون دوره بالغ الأهمية لأنه سيكون المرجع للعقل الواعي في اتخاذ قراراته كما سنشرح الآن.

إذن آلية عمل النظام الفكري ستكون كالتالي:

١- يستقبل العقل الواعي المعلومات من محيطه عن طريق الحواس التي تنبهه الى ما يدور حوله، وكذلك يستقبل معلوماتٍ أخرى من داخل جسده تنبهه الى ما يحتاج اليه هذا الجسد كالجوع والعطش مثلاً، وهذه المعلومات الواردة الى العقل ستتعرض حتماً لمشكلة قصور الحواس التي ذكرناها سابقاً، لذا فقد تأتي المعلومة ناقصة أو مشوهة أو فيها تعميم مُضر.

مثال على التعميم: عندما تتعرض للغش من قبل واحد أو أكثر من باعة الخضراوات (وهذا قد حصل لنا جميعاً بصورةٍ أو بأخرى) سيعمم عقلك حكماً على جميع باعة الخضراوات بأنهم غشاشون، إلا إذا انتبهت لهذا الخطأ في الفكر واستبدلت حكمك على الكل بالبعض. فلا زال في المجتمع باعة صالحون لا يغشون في البضاعة ولا في الوزن.

ولكن الأصل عند البشر أنهم لا يتحفظون ولا يدققون في هذه الأخطاء التي تُرسم في أفكارهم عند استلامهم للمعلومة من محيطهم الخارجي، بل يهربون الى الطريق السهل ويلجئون الى قيل وقالَ وزعموا وسمعنا.. الخ، ولا يكلفون أنفسهم عناء التحقق والسؤال.

٢- تدخل هذه المعلومات (التي قد تكون ناقصة ومشوهة أصلاً) في عملية معقدة من التحليل والمقارنة والتركيب في العقل، وهي في الفعاليات الحياتية اليومية لا تستغرق جزءاً من الثانية، فأنت إذا شعرت بالعطش ستتخذ القرار آنياً بان تشرب الماء، وكذا إذا أحسست بالجوع. وإذا مدَّ صديقك يده لمصافحتك، ستتخذ القرار في جزء من الثانية لتمد يدك لمصافحته... وهكذا

أما في القرارات غير المستعجلة والتي تتطلب تفكيراً أكثر، فانت تأخذ وقتاً أطول للتفكير كشراء الملابس مثلاً، ماذا ستشتري ومن أين؟

وعندما يستقبل العقل الواعي المعلومة فانه يبدأ بتحليلها وادراكها ثم يقارنها بما عنده من خزين من العقائد والقيم والمعايير والمشاعر والأحاسيس، فإن كانت تتعارض مع شيء من هذا الخزين فقد يرفضها أو يعدل فيها أو يعارضها، وقد يقبلها مجبراً في حالات معينة وإن لم يكن مقتنعاً بها، أما في حالة موافقتها لما عنده من خزين فقد يقبلها بتحفظ أو حتى دون تحفظ.

وخطورة الأمر في الفكر البشري أن هذا الخزين الذي تجري معه المقارنات يكون أغلبه مخزناً في العقل اللاواعي، الذي يستقبل كل المعلومات من المحيط عن طريق الحواس ويخزنها دون أي تحفظ أو رفض.. فالعقل اللاواعي لا يتعامل مع

المعلومات بضوابط الصح والخطأ والحلال والحرام وما يجوز وما لا يجوز، فهو يستقبل كل شيء ويخزنه، وعندما يحتاج العقل الواعي الى المقارنات ليتخذ قراره يُخرجُ له العقل اللاواعي ارشيفه كله ويضعه بتصرفه بدون أي فرز أو تنقية، وعلى هذا الارشيف سيعتمد العقل الواعي في اتخاذ قراره.

لذلك تجد نفسك في بعض الحالات تتخذ قراراً لا مبرر له سوى شعور خفي يدفعك دفعاً لمثل هذا القرار ولا تستطيع أن تفسره حتى لو أردت ذلك!

قد يحدث لك مثلاً أن تدخل منتزهاً جميلاً لأول مرة وترى الناس مستمتعين فيه، وفوراً تشعر بالانقباض وتحاول الخروج بأقرب وقت.. ما الذي سبب هذا الشعور عندك مع أنه غير منطقي؟

عندما ترى شخصاً لا تعرفه لكنك تحس بالارتياح له.. ما الذي سبب لك هذا الشعور؟

عندما تريد أن تشتري سلعة ما ويرحب بك البائع ويجري لك خصماً لكن شيئاً في داخلك يقول لك لا تشترِ من هذا البائع... لماذا؟

الذي حدث أنَّ هناك خبرات وصور ومعلومات سلبية وايجابية موجودة في خزين عقلك اللاواعي قد حدثت في الماضي ولكنك نسيتها، ومع ذلك بقيت مخزنة

ولم يمحها عقلك اللاواعي.. وعندما تواجه حالات مشابهة لها ولو جزئياً في المكان أو الشكل أو الكلام أو الحركات.. يستدعي عقلك اللاواعي هذه المعلومات السابقة المشابهة ويحذرك من تكرارها أو يشجعك على فعلها.

قد تكون دخلت في صغرك مكاناً شبيهاً بهذا المنتزه الجميل وتعرضت فيه لحادث ونسيت هذا الحادث لكن عقلك اللاواعي بقي محتفظاً به في تلافيف الذاكرة العميقة، فلما دخلت هذا المنتزه الجديد بعد سنين طويلة والذي لا علاقة له بالمنتزه الذي دخلته في طفولتك، لاحظ عقلك اللاواعي نوعاً من التشابه بين ذاك المنتزه في الماضي وهذا المنتزه الجديد الآن، فأصدر تحذيراً بشكل شعور غامض مبهم بالانقباض، وكأنهُ يقول لعقلك الواعي احذر فقد حصل في مكان مشابه لهذا المكان مشكلة فيما مضى.

كل هذا يحدث في عقلك بسرعة الضوء، وستتخذ قرارك بقبول هذا التحذير وبدون أي مبرر منطقي.. فلو سألناك: لم أنت منزعج وتريد مغادرة هذا المكان الجميل؟! لن تجد اجابة مقنعة سوى قولك إني متضايق وحسب!

ونفس الشيء إذا قلنا لك: لماذا لم تشتر من هذا البائع اللطيف المتعاون؟ لن تجد إجابة مقنعة سوى قولك: لم يعجبني أن أشتري منه.

هذه الأمثلة السابقة تبين لك أهمية أن تعرفَ كيف يعمل النظام الفكري لديك ومدى خطورة الجهل بآلياته.. لأن اتخاذ القرارات الحياتية كلها قائمة على هذا النظام وعمله.

فهو نظام كباقي النظم فيه مدخلات، وعملية تحليل ومقارنة وتركيب، واتخاذ قرار، وأخيراً سلوك يترتب على هذا القرار.

وإذا أدركت هذا ستعلم لم يستمتع القاتل بالقتل والسارق بالسرقة والخائن بخيانته... كما يستمتع الطبيب بعمله والأمين بأداء أمانته والمخلص بصدقه وإخلاصه.

فلدى كل منهم خزين يختلف عن الآخر من الخبرات والتجارب التي شكلت عوالمهم، وبالتالي فكل منهم لا يتردد في اتخاذ القرار الذي يلائمه والذي يعتبره هو الصحيح.

إذاً لدينا مدخلات عن طريق الحواس قد نشترك مع الآخرين بجزء بسيط منها، لكن بعد أن تدخل عقولنا سنختلفُ مع الآخرين في كيفية تفسيرها وفهمها وتحليلها واتخاذ القرار تجاهها.

لذلك يجب أولاً أن ننتبه الى مدى دقة هذه المدخلات، ونحاول أن تكون المعلومة كاملة واضحة قدر المستطاع، لأن الحواس كما ذكرنا سابقاً قد تخدع.

فمثلاً قد ترى طفلاً ينتزع حقيبة من آخر ويركض هارباً فتنزعج لأنك تعتقد أنه سارق، ثم بعد السؤال والتحقق يتبين لك أنه قد استرجع حقيبته التي اغتصبها منه الطفل الثاني قبل قليل وأنت لم تره.

٣- ذكرنا فيما سبق أنَّ لدينا خزيناً من الخبرات والتجارب، التي تشكلت عن طريق الأبوين والأسرة والمجتمع.. الخ، ثم من نشاطاتنا الشخصية. وهذا الخزين هو الذي ستتم مقارنة المعلومة الداخلة معه.. وأخطر ما في الأمر أنَّ هذا الخزين يكون بعيداً عن النقد والمراجعة والتصحيح، فهو يتشكل ببطء وخفاء لذا لا ينتبه الانسان عادةً الى أنه بحاجة الى مراجعة، فهو قد استقر في فكره طيلة السنوات الماضية من عمره وتأقلم معه وتعود عليه.

وكلما تقدم الانسان في العمر وهو غافل عن هذا الأمر صعب عليه التصحيح والمراجعة.

لذلك تجد الحكومات والأحزاب العقائدية تهتم بفئة الأطفال والمراهقين والشباب وتزرع أفكارها في عقولهم الغضة والتي تكون فارغةً ابتداءً من أية خبرات

يمكن أن تقف عائقاً أو تسبب رفضاً لأفكار الحكومة أو الحزب.. وإذا شبَّ الطفل على فكر معين فنادراً ما يمكنه تغييره في الكبر.

وأهمُّ عملية تحدث في الفكر البشري هي مقارنة المعلومة الداخلة مع الخبرات المخزنة لأن القرار الذي سيتخذه العقل معتمد بصورة كلية على نتيجة هذه المقارنات.. وهذه الخبرات المخزنة تحوي على مفاهيم الدين والمعتقدات الأخرى والقيم والمعايير وتراث الآباء والأجداد والقبيلة وأعراف المجتمع وآثار النظام التعليمي والتجارب الايجابية والسلبية التي مرَّ بها الانسان والنجاحات والإخفاقات...الخ

وبعد أن يتخذ العقل قراره سيظهر هذا القرار بشكل سلوك معين يراه الجميع.. وسواء أعجَبنا هذا السلوك أم لم يعجبنا، يجب أن نعلم أنه لم يأت من مجرد فراغ أو تسرع أو طيش.. كما أنه لم يأت من مجرد علم وحكمة وتأنٍّ.. بل أنه حصيلة نظام فكري يتحكم في عقل هذا الانسان أدى لمثل هذا السلوك.. وإذا أردنا لسبب أو آخر أن نغير أو نطوّر من هذا السلوك دون أن ننتبه لهذا النظام الفكري المتحكم الذي أنتجه سنفشل في الغالب، أو سننجح نجاحاً مؤقتاً ولكنهُ سيتحول الى فشل أعمق بمرور الزمن.

(١٠)
أمراض في الفكر

معَ أن الكثير من النقص والخلل يصاحب تشكل الفكر الإنساني بسبب العوامل المؤثرة فيه والتي ذكرناها سابقاً، إلا أن الفكر يبقى معرضاً وطيلة حياة الانسان الى أمراض تصيبه بين الحين والآخر، فهو في النهاية منتج بشري، وكما يصيب جسم الانسان آفاتٌ وأمراض، كذلك الفكر تصيبه الآفات والأمراض فتؤثر على استقامته وسلامته ومطابقته لحقائق الأشياء.

وسوف نستعرض بعضاً من أشهر هذه الأمراض والتي يمكن تمييزها وتشخيصها، وهناك غيرها كثير يحتاج الى دراسات مستقلة.

أولاً: الجهل

ولا أعني بالجهل هنا الأمية وعدم الدراسة أو عدم الحصول على شهادة، بل المقصود هو قلة المعلومات عن واقعة ما .

وقد كان علماء السلف على علو شأنهم وغزارة علمهم يُحذّرون ويتحفظون من هذا المرض في التفكير ولو كان في تخصصهم. . فقد روي عن الإمام مالك قوله: "نصف العلم قول لا أدري" و"على العالم أن يورث جلساءه قول لا أدري" .

وعن عبدالرحمن بن مهدى قال: كنا عند مالك بن أنس، فجاء رجل فقال: يا أبا عبدالله، جئتك من مسيرة ستة أشهر، حمَّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها، قال: فسلْ، فسأله الرجل عن مسألة، قال: لا أحسنها ، قال: فبُهت الرجل، كأنه قد جاء إلى مَن يَعْلمُ كل شيء، فقال: فأي شيء أقول لأهل بلدتي إذا رجعت لهم؟ قال: تقول لهم قال مالك: لا أحسن.

وهكذا كان الكثير من العلماء الذين ورّثوا أتباعهم مدارس في الفقه لا يتحرّجون من قول (لا أدري) .

وقولُ (لا أدري) هوَ الحاجز والضامن للفكر من الوقوع في آفة الجهل حتى يستدرك النقص الذي فيه.. فصاحبُ الفكر السليم يُدرك أنه لا يمكن أن يحيط بكل شيء ولو بتخصصه الدقيق، وإذا واجهته مسألة جديدة لم يحط بمصادرها ومواردها يجب أن يتوقف ويقول لنفسه أولاً: (لا أدري) حتى وإن لم يصرح بها للآخرين.. ثم يمتنع عن الخوض فيها حتى يستدرك جهله ويستكمل معلوماته فاذا اطمأن الى أنه قد اصبح (يدري) فعلاً بهذه المسألة تكلم فيها.. وخلاف ذلك فانه يجب أن يقول لكل سائل فيها: لا أدري.

ثانياً: الحل الوحيد

كثير من الناس لديهم حلٌّ واحد للأمور، فإما أن يتحقق هذا الحل أو لا يتحقق.. ويزيد هذا المرض قوة أن يكون هذا النوع من الناس متعصبين لرأيهم، فلا يقبلون حواراً ولا إعادة نظر في هذا الحل الوحيد.

وغالباً ما يكون الحل الوحيد هو أسوأ الخيارات عند الانسان.. لأن الانسان كلما كثرت خياراتهُ ازدادت سيطرته على حياته وأفعاله وتعاملاته مع الآخرين.. أما صاحب الحل الوحيد فليس أمامه الا طريق واحد قد ينجح وقد يفشل.

فإن نجح سيزداد يقينه بأن اسلوب تفكيره بالحل الوحيد هو الصح، وهذا ما سيوقعه في مشاكل أكثر بعد ذلك.. وإن فشل الحل الوحيد فلن يكونَ أمامه خيارٌ آخر، ولا يبقى لهُ الا التسليم والاستسلام للفشل.. أو المكابرة وهذا ما سيوقعه في مشاكل أكبر.

وعلاج هذا المرض أن تحاول ما استطعت أن تكثِرَ من خياراتك في كل شؤون حياتك، ولا تجعل حياتك متوقفةً على أمر واحد سواء نجحت فيه أم فشلت.. وكلما كانت خياراتك في الحياة أكثر كانت الحلول التي ستجدها لمشاكلك أكثر.

ثالثاً: التحيّز الإدراكي

عادةً ما يبحث الانسان عما يوافق هواه وآراؤه وأفكاره وينفر مما يخالفهم. لذلك فهو يتحيز بفكره بوعي أو بدون وعي لاقتناص كل واقعة وحادثة ودليل يؤيد ما يقوله ويذهب اليه، ويهمل الأدلة التي تعارضه مهما كانت قوية ومنطقية.

خذ مثالاً لذلك.. المدخنُ الذي يجمع لك الأمثال والشواهد على عدم مضار التدخين.. فيقول لك إن جده مات وعمره ٩٠ عاماً وكان يدخنُ في اليوم

كذا سيجارة، وأنَّ فلاناً مات في الثمانين وآخر في السبعين، وهم بصحة جيدة وكانوا من المدخنين الشرهين... الخ

وخذ مثلاً آخرَ من بعض السياسيين الذين يلوّنون تصرفاتهم الخاطئة بشواهد وحجج من الدين، يلوونَ أعناقها لياً ليقنعوا أنفسهم ويقنعوا البسطاء من الناس أن تصرفاتهم الكارثية لها أصل في الدين لا غبار عليه.

وخذ مثلاً آخر من أحد رجال الدين الذي قال قبل ثلاثين عاماً أن الكيان الصهيوني سيزول في عام ٢٠٢٢ وكلما اقتربنا من هذا العام كان يظهرُ في تسجيلات ومحاضراتٍ ليناقح ويدافع عن قوله السابق حتى دخلنا عام ٢٠٢٢ وتجاوزناهُ، ولا زال يسجل الفيديو تلو الآخر ليدافع عن رأيه، حتى وصل به الحد أن يقول قد يحدث زوال الكيان الصهيوني ونحن لا نعرف الآن في الظاهر وسندركه فيما بعدُ؟!!

وكان يكفيه أن يقول إنَّ ما قلتُهُ ظنٌّ ثبت خطؤه.. وبذلك يكون قد أراح واستراح.. ولكنه التعنت في الفكر وهو من أعراض هذا المرض الذي نسميه التحيز الادراكي.

والخطورة في التحيز الادراكي أنه في الغالب يتم في اللاشعور عند الانسان، فلا ينتبه الانسان لهذا الفخ، بل يدافع وينافح بشراسة ويزداد تمسكاً بموقفه كلما لاح له شاهد جديد يؤيده.. وهو يعمى تماماً عن كل شاهد ودليل يخالفه.

وهذا المرض الفكري إذا تضخّم وترسخ يكون قاتلاً للفرد وللمجموعة وللبلد الذي يحكمه حاكمٌ مصاب بمثل هذا المرض الفكري. والشواهد من التاريخ القديم والمعاصر كثيرة وواضحة.

وعلاج هذا المرض

أن ينتبه الانسان لوجوده أولاً.. ومن ثمَّ يتوقف قليلاً ليراجع المسألة التي ينوي اتخاذ القرار فيها، ويركز على آراء المخالفين ويدرسها بإنصاف لعلَّ فيها من الصواب ما يكون قد غفل هو عنه. ويمكن أن يتخذ هذه الخطوة بينه وبين نفسه في الخفاء لا في العلن، كي لا يتعرض لمواقف محرجة أو يتعرض لما يعتبره هو مساساً بكرامته أو امتهاناً لعقله من قبل الآخرين.. فليس من الحكمةِ أن تجري مثل هذه المراجعات في العلن وعلى صفحات التواصل الاجتماعي مثلاً.. بل يبدأ بها صاحبها بينه وبين نفسه بهدوء، ولكن بجد، وقطعاً سيهديه الله تعالى الى الحق إن

كان جاداً ومنصفاً مع المخالف.. فاذا تراجع عن رأيه بعد أن تبيَّنَ لهُ الحق فهذه ستكون مبادرةً طيبةً منه وسيقدر له الجميع بمن فيهم مخالفوه هذه الشجاعة.

رابعاً: الاستعلاء

وهذا المرض الفكري يصيب كل المتكبرين في الأرض قطعاً.. لكن الغريب في هذا المرض أنه يصيب بعض الناس ممن لا يُعرف عنهم خُلق الكبرِ وخاصة من المثقفين والمتدينين، فيستعلون على الناس بما يحملون من ثقافة أو دين.

وهذه الآفة تشوه الفكر بما فيه وتشعر صاحبه أنه فوق البشر الآخرين بعلمه وفهمه أو دينه أو مذهبه السياسي... الخ

وبالتالي سينظر لكل مخالف أنه لا يستحق حتى مناقشته لأنه أقل منه شأناً، ويسد كل الأبواب التي تؤدي الى عقله ما عدا باب وحيد هو مقتنع به ومطمئنٌ له.. وعاقبة هذا المرض وخيمة على صاحبها وعلى من حوله وخاصةً إذا كان رأساً في قومه.

وقد ساهم في انتشار هذا المرض بين المثقفين سوءُ نظامِ التعليم وتشويهه في بلادنا بحيث أصبح يركز على الشهادة بدل الكفاءة، وأصبحت مقامات الناس

المثقفين محصورة بحرف الدال (دكتور) أو الألف (استاذ) ومؤخراً ظهر عندنا حرف الباء المعرب (بروفيسور) وهكذا بقية الألقاب الأخرى.

وهذا النظام التعليمي المشوه أفرز ممارسات تخريبية في التعليم نفسه ليس أقلها شراء الشهادات، والرسائل والأطروحات العلمية الهزيلة التي تُقدم لنيل هذه الشهادات، وليس آخرها تزوير الشهادات من قبل السياسيين والوجهاء ليقال له دكتور فلان أو استاذ فلان.

وهذه التصرفات في الحقيقة ضِعةٌ لصاحبها، وغالباً هو يعلم هذا، ولكنّه يمارس بها الاستعلاء على الآخرين على اية حال.

أما بين المتدينين فقد انتشر هذا المرض بسبب كتابات ومقالات ظهرت في منتصف القرن الماضي تركز على مفهوم (الاستعلاء الشعوري) للمؤمن، وكانت هذه الكتابات بالأساس تهدف الى اعادة الثقة بالنفس للمسلمين الذي انهزموا على كل الصعُدِ السياسية والاقتصادية والعسكرية، بحيث أصبح الغرب هو المثال والقدوة في مجتمعاتنا .

ولكن حصل الكثير من الغلو في مفهوم الاستعلاء الشعوري حتى تحول الى مرض فكري حقيقي أدى الى انقطاع الخلطة مع الناس الآخرين من المخالفين.

والأصل أن صاحب الدين والرسالة يخالط الناس وينزل الى مستواهم ابتداءً كي يرتقي بهم فيما بعد، لا أن ينظر الى نفسه أنه في مرتبة أعلى وأشرف. وقد حذر أرباب السلوك من العلماء أمثال ابي حامد الغزالي وغيره من مثل هذا المرض الفكري بين المتدينين واعتبروه نوعاً من الجهالة بمقامات النفس البشرية.

وساعد على ترسيخ هذا الاستعلاء الشعوري أيضاً التأكيد على المظهر بين الاشخاص الملتزمين، فحصل تمييزٌ ظاهر للعين في الهيئة والملبس، وأصبحَ (الملتزمون) طبقة في المجتمع يتواصلون بينهم وينظر أحدهم للآخر نظرة علوية، وينظر لغيره نظرة دونية.. وتطور هذا المرض حتى أصبح لكل فئةٍ من (الملتزمين) مكان ومسجد يوصف بصفتهم.. وكل منهم يستعلي على الآخرين بما يحمل من فكر يراه هو الأحق بالاتباع.

وعلاج هذا المرض

أن ينتبهَ الانسان من هذه الغفلةِ القاتلة.. الى أنه مهما بلغ من العلم والذكاء فإنه لم ولن يتوصل الى كل الحقائق في الكون والحياة.. نعم قد يكون توصل الى حقيقة التوحيد وحقيقة الرسالة واليوم الآخر.. لكن هناك الآلاف من الحقائق

الموجودة أصلاً والتي ستظهر لاحقاً لم يحط بها علماً . ولا يزال الانسان طالب علم حتى يدخلَ قبره. وفوق كل ذي علم عليم . .

ثمَّ إن جلّ علمه مكتسب من جهود غيره ممن سبقهُ، فبماذا يستعلي على خلق الله تعالى؟!

وهذه الانتباهة لا تأتي بسهولة. . بل يجب أن نركزَ على هذه المفاهيم في نظامنا التعليمي وفي الاعلام، ونعلّمَ الفرد من مراحل الطفولة على التواضع العلمي والفكري، وأن يستمع للمخالف ويحترم رأيه وإن لم يقتنع به، وهذا البناء بطيء ويستغرق سنين لكن لا بدَّ منهُ. لأنَّ من نشأ وهرِمَ على الغرور والتعنت بالرأي لا يعيده الى الصواب وعظ ولا نصح. وبناء الأجيال الجديدة خطوة لا بد منها .

خامساً: تغليب العاطفة

كان الاعتقاد السائد الى بداية تسعينات القرن الماضي أنَّ الانسان كائن منطقي يستخدم العقل والمنطق في أغلب شؤون حياته. . حتى طرح عالم الأعصاب انتونيو داماسيو نظريته الجديدة في كتابه خطأ ديكارت. . وقال إن الانسان يأخذ قراراته بنسبة كبيرة بناء على عواطفه لا على تفكيره المنطقي، وأن المشاعر تلعب دورا كبيراً لا يستهان به في تشكيل عقل الانسان وفكره وقراراته. .

واتْبع كتابه هذا بكتاب آخر اسمه (الشعور بما يحدث) ومن ثم كتب أخرى عزّز فيها نظريته وأفكاره الجديدة حول عملية التفكير والادراك عند الانسان.

وأنا أميل الى هذه النظرية كثيراً، فالمشاهَدُ في الواقع أن عواطف الحب والكره والخوف والغضب تقود الانسان كثيراً في اتخاذ قراراته بعيداً عن الانصاف والمنطق وحتى المصلحة أحياناً.

فكثيرٌ من الحروب المدمرة استخدمت في اشعالها وادامتها العواطف والمشاعر، والُغي فيها العقل بصورة شبه كاملة.. ويكفي أن تراقب كيف يساق الآلاف من البشر الى محرقة حربٍ لا قرار لهم فيها ولا مصلحة، سوى وعود الزعيم وصراخه وتشجيعه.. ويكفي أن تسمع الشعارات والهتافات التي لا معنى لها ولكنها مع ذلك ترفع من معنويات هذه القطعان البشرية ليقبلوا على الموت دون تردد.. ومن يبقى منهم حياً سيعلم بعد فوات الأوان أنه كان مجرد دمية لا قيمة لها استخدمت لتحقيق مآرب المتسلّطين ثم رميت جانباً.

وهكذا ينحدر الفكر البشري إذا غلبت عليه المشاعر والأحاسيس أو كما عبر عنها القرآن الكريم بكلمة (الهوى) فانه يكون قد ابتعد عن التفكير السليم بقدر قوة تحكم الهوى فيه زيادةً ونقصاً.

وهنا نشير الى دقة وروعة الآيات التي تتحدث عن حال ومصير الانسان مع هواه.. يقول الله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾

فالطريق السليم الى الجنة يكون بإضعاف الهوى قدر الامكان ومخالفته، لأنه يضرُّ بفكر الانسان وقراراته، وليس الهوى إلا مجموع العواطف التي ذكرنا أهمها، وهناك غيرها كثير.

ولكن هل يستطيع الانسان أن يتحكم بعواطفه دائماً؟ قطعاً لا.. لكنه يحاول قدر الامكان، وسينجح الى حد بعيد. ومع أنه لن يصل الى الكمال لكن سيصل الى قدر مقبول يقيهِ الضّرر والضّرار.

وأول خطوة في علاج هذا المرض

أن يعيَ الانسان ويدرك أن العواطف فخٌّ يقع فيه دوماً وباستمرار.. ويبدأ بملاحظة سلوكه وقراراته بإنصاف ويسأل نفسه دوماً وبصدق وحزم: هل قمت بهذا السلوك بناء على العقل والمنطق أم على العاطفة؟

ويبدأ تدريجياً بضبط العاطفة. يبدأ بالأسهل ثم يرتقي الى الأصعب، حتى تصبح سيطرته على عواطفه سجيّة لا يعاني من ممارستها.

وأخيراً فإنَّ أهم سمة تميز الانسان الحكيم عن غيره هي أنه يضبط عواطفه بكل سهولة ولا يسمح لها أن تظهر أو تؤثر في سلوكه وقراراته.

سادساً: البقعة العمياء

يعرف كل من يقود سيارة أن هناك منطقة جانبية لا تظهر في المرآة الأمامية ولا في مرآة السائق الجانبية، وتسمى هذه المنطقة (بالبقعة العمياء)، وتزداد خطورة هذه المنطقة في السيارات الكبيرة والشاحنات عندما لا ينتبه سائقها الى هذه المنطقة، وكذا عندما لا ينتبه سائق السيارة الصغيرة أن سائق الشاحنة والذي أصبح أمامه بقليل لا يراه، فتحصل جراء ذلك حوادث مؤسفة.

في عالم الأفكار هناك بقعة عمياء ولكن من نوع آخر. أشار اليها عالما النفس جوزيف لوفت وهارينغتون انغهام، في دراستهما عن حالات معرفة الانسان لنفسه، وعلاقته مع الآخرين، أو كيف يراهُ الآخرون. وسميت نظريتهما بمختصر لاسميهما (نافذة جوهاري).

وهذه النظرية هي جواب على سؤالين: كيف نرى أنفسنا ؟ وكيف يرانا الآخرون؟

ومن هذين المتغيرين سينتج لنا أربعة احتمالات:

١- أمور أعرفها أنا عن نفسي ويعرفها الآخرون كذلك. وهذا يسمى الجزء المفتوح من الشخصية.

٢- أمور أعرفها عن نفسي ولا يعرفها الآخرون. وهذا يُسمى بالجزء الخاص.

٣- أمور لا أعرفها عن نفسي ولكن الآخرون يعرفونها ويلاحظونها . وهذا هو جزء البقعة العمياء .

٤- أمور لا أعرفها عن نفسي ولا يعرفها الآخرون كذلك. وهذا الجزء يسمى بالجزء المجهول وهو في الحقيقة لا قيمة له من الناحية العملية.

وأخطر هذه الاحتمالات الأربعة لهذه العلاقة بيننا وبين الآخرين هي البقعة العمياء. وهي باختصار تحصل في عقل الانسان وفكره عندما يعرف الآخرون عنك صفات وسلوكيات ومظاهر لا تعرفها أنت عن نفسك، أو لا تلاحظها، أو لا تهتم بمعرفتها، أو ترفض معرفتها وتنكر وجودها . . فتكون النتيجة أنَّ صورتك

عند الآخرين هي غير الصورة التي تحملها أنت عن نفسك. ثم تتعجب لماذا يتصرف معك الآخرون بصورة غير مقبولة لديك وأنت لم تفعل لهم شيئاً .

وهذا المرض الفكري هو من أخفى الأمراض التي يتعرض لها العقل البشري، لأن الانسان غالباً يهتم بتصرفاته هو، وتصرفات الآخرين معه، ولكن لا يهتم بصورته المرسومة عند الآخرين، والتي قد تكون شيئاً مغايراً بالكامل لما يراه هو عن نفسهِ، لذا تجدهُ يكابر وينفي أنه بهذه الدرجة من السوء ويتهم الآخرين بأنهم ظالمين وغير منصفين. . ويتمسك بما هو عليه من سوء مع المزيد من التبرير .

ونتيجة لهذه البقعة العمياء تجد الحاكم الديكتاتور يصف نفسه بالحزم، وتجدُ المسؤول الظالم بأحكامه يصف نفسه بالعدل، وتجدُ السخيف الرقيع يتصور نفسه خفيف الظل. . وهكذا .

ويزداد هذا المرض الفكري إذا أحاط بالشخص أصدقاء سوء منتفعون، أو بطانة سوء منافقون، يُزينون له الباطل ويخفون عنه الحقائق، فتكبر عنده البقعة العمياء، حتى تطغى على تفكيره كله فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً من أمور الدين والدنيا .

وأول العلاج لهذه البقعة العمياء التي لا يخلو منها أي شخص، هو أن يبحث في عقله وفكره، هل هناك أمور في فكره وسلوكه تؤذي الآخرين ولم ينتبه لها، وهذا البحث قد يكون صعباً في البداية لذلك يجب على الانسان أن يبحث على صديق صدوق أو زميل في العمل أو أحد من اقاربه يكون ناصحاً وصادقاً معه، يسألهُ ويستشيرهُ عن انطباعه فيما يخصّ سلوكه وشخصيته، ثمَّ يسمع ويستفيد من ملاحظاته ولا يغضب من نقده وملاحظاته مهما كانت قاسية. . يجعله كالمرآة ينظر اليها كل حين ليكتشف ما لا يستطيع اكتشافه بمفرده من أخطاء الفكر والسلوك. . فإن داوم على ذلك بين فترة وأخرى سيتخلص تدريجياً من هذه البقعة العمياء التي تشوّه فكره وتفكيره.

سابعاً: فرط الثقة

الثقة بالنفس وبالفكر وبالعقل مطلوبة ككل الصفات الايجابية الأخرى، لكن المبالغة والإفراط في كل شيء هو كالتفريط، سيكون مؤذياً ولا يحقق الهدف بل قد يؤدي الى عكس المطلوب.

الثقة الايجابية المقبولة حدودُها هو الواقع والامكانات مع تجاوزات بسيطة مقبولة عقلاً. . فالرياضي الذي حقق رقماً قياسياً في الجري، سيكون له ثقة بنفسه

أن يكسر هذا الرقم بثواني أقل، وهذا مقبول.. لكن غير المقبول وغير المنطقي أن يثق بانه سيكسر هذا الرقم بدقائق عدداً، فهذه ثقة في غير محلها.

وفرط الثقة في الفكر البشري كثير الوقوع.. وينتج عن أوهام وبيانات مغلوطةٍ وعواطف غلابة، تجعل القط يتوهم نفسه نمراً وتجعل العصفور يتوهم نفسه صقراً.. ولكن حين تحين ساعة الجد، يبقى القط قطاً والعصفور عصفوراً.

وهذا المثال من باب المجاز، لأن فرط الثقة لا تجده عند الحيوانات، فهي قد فُطرت على احترام حدودها.. لكن تجد فرط الثقة عند الانسان بشكل واضح لأن له عقلاً يسبح في الخيال.

والأخطر من ذلك أن يوصل فرط الثقة صاحبه الى عدم تصديق امكاناته الحقيقية، ويبقى مصراً أنه أفضل من ذلك رغم هزائمه المتكررة في ساحة الحياة، ويكثر هذا المرض ويظهر بوضوح في الجماعات الدينية قادة وأفراداً.. فمهما بلغت هزائمهم وخيبتهم تراهم يردّدون أن في هذه المحنة منحة، حتى تأتيهم الضربة القاضية ويسكنون القبور. ومع ذلك لا يتعظ بهم من بعدهم لأنَّ هذا المرض الفكري قد تأصل واستفحل فيهم.. فالذين ماتوا هم (شهداء) مصيبون، وليسوا (مخطئين) في قراراتهم وتقديراتهم.

وعلاج هذا المرض. . أن تعرف حدود قدرتك وتمارسها . ومعرفتك لهذه الحدود على حقيقتها سيزيد من ثقتك بنفسك، لأنكَ أحياناً تمتلك قدرات أكثر مما قدّرت لكنك لم تكتشفها بعدُ.

وأنصح أن تبدأ بما هو دون قدرتك الحقيقية بقليل، كي يكون النجاح مضموناً والثقة راسخة. . ثم يمكنك بعد ذلك أن تزيد من قدرتك بالتدريج بصورة علمية منضبطة وبالتوازي سوف تزداد ثقتك بنفسك. واضرب مثلاً واضحاً من عالم اللياقة البدنية.

اذا كنت قادراً على رفع ثقل يزن ٥٠ كيلوغراماً فلا تصرّح بذلك بل قل أستطيع حمل ٤٥ كيلوغراماً، وقطعاً ستستطيع ذلك بسهولة، وتكون عندك الثقة كاملة لتفعل ذلك، ثم تدرّبْ على رفع أكثر من خمسين، وأظهر أنك تستطيع رفع الخمسين ولن تفشل. . وكلما ارتقيت بزيادة الوزن أظهر ما هو أقل وستنجح قطعاً.

ثامناً: تبني افتراضات ومقولات خاطئة

وسأناقش مثالاً واحداً من هذه الافتراضات والمقولات التي دمّرت عقولاً وجهوداً بأكملها، ولا زالت.

وهي مقولةٌ سمعناها كثيراً وهي: أنك مطالبٌ بالعمل لا بالنتيجة

ومعتقديها يشرحونها لك كالآتي: أنت مطالب بان تقوم بالعمل الذي كلفت به فقط. . أما النتيجة فتكل أمرها الى الله تعالى إن شاء تحققت وان شاء لم تحقق، بمعنى أن لا تهتم كثيراً بتحقق النتائج من عدمها .

ولا شك أن هذا الكلام باطل، وتفسيره باطل، ومآله باطل.

فكل ما في الحياة يجري بقدر الله تعالى ولكن هناك اسباب ونتائج يحاسب عليها الانسان.

وتطبيقاً لهذه المقولة تصور معي هذه الحالات التطبيقية:

إذا كنت طالباً فعليك أن تدرس فقط، أمّا أن تنجح أو ترسب فهذا ليس من مسؤوليتك، بل هو قدر رباني.

إذا كنت تاجراً وفتحت مشروعاً تجارياً، ثم فشل هذا المشروع فأنت غير مسؤول لأن فشله قدر رباني.

وقطعاً من يحملون هذه الفكرة لا يطبقونها على الأمثلة التي ذكرتها، لكنهم يطبقونها وبتفان منقطع النظير في مجال الاصلاح والدعوة الى الله. فأنت عليك أن تعمل ضمن مبادئ حزبك وجماعتك، فان فشلت ولو الف مرة فهذا ليس من شأنك بل هو قدر رباني لا يحاسبك عليه أحد .

وفي المثالين الأوليين يُلام الطالب ويعيد النظر في اسلوب دراسته، ويلامُ التاجر ويعيد النظر في اسلوب تجارته. ولكن في المثال الثالث لا أحد يلام ولا أحد يعيد النظر.. ولو لم يظفر ابليس من دعاة اليوم الا بإقناعهم بهذه المقولة لكفتهُ.

وهناك كثير غيرها من المقولات سمّمت الفكر الانساني في الدين والدنيا وأمرضته، والكلام فيها يطول.. ولكن ضربنا لك مثالاً وابحث أنت عن الباقي.

تاسعاً: التعصب والانغلاق

إذا أصيب الانسان بأمراض الفكر السابقة بعضها أو كلها.. سيؤدي ذلك بالنتيجة الى سرطان فكري خطير اسمه التعصب والانغلاق على الذات.

وهذا المرض وصَفتهُ بالسرطان الفكري لأنه يتضاعفُ وتتضاعفُ معه كل الأمراض الفكرية الأخرى، ويؤذي صاحبه ومن حوله، وينتقل الى المجتمع بالعدوى الفكرية المباشرة.

التعصب والانغلاق يحول بين الانسان وبين أي محاولة لتصحيح الفهم والفكر، وخاصةً إذا أتت محاولة التصحيح من خارج الحيّز الذي سجن عقله فيهِ.

وهذا الحيز قد يتمثّلُ بشكل مذهب ديني أو دنيوي أو بشكل حزب أو جماعة أو قبيلة أو بشكل طائفة أو قومية أو بشكل عرقٍ أو لون... الخ

أياً كان شكل ونوع هذا الحيز الذي يسجن الانسان فيه فكره وعقله، فلا يمكن لأحد أن يفتحه بأي شكل من الأشكال، حتى يقتنع صاحبه نفسهُ بأن يفتح الأقفال ويخرج من سجنه الضيق.. وخلاف ذلك سيكونُ هذا الحيز الضيّق المحدود هو عالمه الذي يعيش ويموت فيه، ويحب ويكره من خلاله، ويوالي ويعادي بناء عليه.

وقد اشتُهر بين الناس أنَّ المتعصبين هم من الذين يحملون الفكر الديني فقط، وهذا خطأ، فأنت تجد التعصب والانغلاق في كل طبقات وأصناف وثقافات المجتمع.. فتجد المتعصب لنظرية اقتصادية يحاربُ من أجلها ويعتبرها هي الحل لكل مشاكل العالم.. وتجد المتعصّب لفكرة سياسية، وتجدُ المتعصّب لنوع معين من الفنون والآداب.. وهكذا.

وكل هؤلاء يجمعهم مظهر واحد وهو أنهم قد وضعوا سدوداً وحدوداً لأفكارهم لا يمكن اختراقها، ولا يسمحون بمناقشتها، ولا الاعتراض عليها.. لأنهم اقتنعوا بأن ما هم عليه هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وكل ما سواه هو الباطل والخطأ الذي لا شك فيه.

وإذا وصل الفكر الى هذا المستوى من المرض والانهيار فإنَّ علاجه يكون صعباً جداً . . وغالباً ما يخسر المجتمع الكثير من أفراده ويهدر الكثير من طاقاته في محاولاته لعلاج هذا المرض.

والمؤسف في الأمر أنَّ الكثير من المجتمعات ليس لديها الامكانات الفكرية والماديةِ لعلاج مثل هذا المرض المستعصي، فتلجأ مختارة أحياناً ومرغمةً أحياناً أخرى الى حربه بالعصا الغليظة وربما بالسلاح، وآخر الدواء الكيّ.

والمؤسف أكثر أنَّ هذه الحرب قد تقضي على الأفراد الذين يحملون هذا السرطان الفكري، لكنها تُرسّخُ من جهة أخرى مثل هذا المرض عند آخرين، ويصبحون حاملين مجهولين للمرض لا تدري متى ستظهر الأعراض عليهم فيستكملون التخريب الذي بدأ به من سبقهم.

التعصب والانغلاق على الذات مرض يجمع كل ما ذكرناه من أمراض سابقة، ولا يكفي في علاجِهِ الدعوة بالكلامِ والوعظِ فقط، فهذه سطحية لا تنفع ولا تجدي، وهي كمن يعالج السرطان بالمسكنات فقط. بل علاجه يكون بنفس طويل وبرامج تعليمية وثقافيةٍ تبدأ من رياض الأطفال، ولا تستثني أحداً من طبقات المجتمع. فليس كلّ افراد المجتمع ينتظمون في المدارس وطلب العلم. . أضف الى ذلك الزيادة

المخيفة في الأمية، والتي يقابلها انفتاح غير منضبط على ما في العالم من خير وشر عبر الانترنت.

وهذه البرامج يجب أن يكون من ضمن أهدافها علاج الأمراض الأخرى التي ذكرناها، حتى نصل الى نتيجة صحيحة.

ولنأخذ مثلاً واحداً يوضحُ الأمر:

تقبلُ الرأي المخالف والتعامل معه بأريحية وأدب وموضوعية وانصاف هو من أكثر الأخلاقيات التي يجب نشرها في المجتمع لمكافحةِ ظاهرة التعصب والانغلاق.. ولكن إذا بحثت عنه في المجتمع لا تكاد تعثر له على أثر.. لماذا؟

لأن الطفل يتربى منذ نعومة أظفاره على أن يسمع ويطيع بلا نقاش، في البيت أولاً ثم في المدرسة ثم في محل العمل أو الوظيفة.. وهذا الذي يتربى عليه يطبقه بدوره على من هو أدنى منه، وعلى هذا الخُلُق يكبر الصغير ويهرم الكبير.. فكيف تطلبُ منهُ أن يتقبل الرأي المخالف، وهو نفسه لم يتقبل منه أحدٌ يوماً ما رايهُ عندما يُخالف؟!.

(II)
كيف يعمل النظام الفكري السليم

سنوردُ أنموذجاً للنظام الفكري السليم، وسنناقشه كنظام متكامل فيه كل مقومات النظام السليم وخصائصه وصفاته.

ولا أزعم أن هذا هو الحق الذي لا باطل فيه، إنما هذا ما وصل اليه اجتهادي وقراءاتي وملاحظاتي في هذا المجال، وهو باب أفتحه لكل دارس وباحث ومهتم بدراسة أنظمة التفكير ودورها في تطور الانسان والمجتمع، لكي يضيف ويصحح ويعدل في هذا الكلام ويطوره الى الأفضل، لعل وعسى أن نسير خطوة صحيحة الى الأمام.

مواصفات النظام الفكري السليم

أولاً : أن تكون مدخلاته صحيحة

وهذا يقتضي بالضرورة أن يكون مرهف الحواس، دقيق الملاحظة، لأننا قلنا وكررنا كثيراً أنَّ الحواس بما أنها قاصرة ولها حدود وسدود فهي قد تخدع، وحل هذا القصور يكون بإرهاف الحواس، أي تدريب الحواس على الملاحظة الدقيقة ورؤية ما لا يراه الآخرون عادة من النظرة الأولى، وسماع ما لا يسمعه الآخرون، والاحساس بما لا يحسه الآخرون. . وأن لا يكتفي الانسان بتلقي المعلومة بل يدقق ويحقق فيها على قدر أهميتها، فليست كل معلومة تتطلب التدقيق، لكن إن كانت مهمة أو متعلقة بحقوق ومصائر الآخرين وسمعتهم، فلا بد من التدقيق والتحقيق الى أقصى حد ممكن.

ثانياً: أن تكون نتائجه محققة للأهداف

أي أن مخرجات النظام مطابقة للأهداف المطلوبة. . فالأسباب تؤدي الى النتائج، إلا في الظروف القاهرة وهي نادرة الحدوث وليست هي الأصل في وقائع الحياة.

فالذي يدرس بجد ينجح ويحصل على نتيجة ممتازة، هذا هو الأصل المعول عليه.. ولكن قد يحصل ظرف قاهر كمرض مفاجئ يمنع من حضور الامتحان، وهذا استثناء يؤكد القاعدة ولا يلغيها.

ولا يوجد في النظام الفكري السليم كلام مثل: عليك العمل ولست مسؤولاً عن تحقق النتائج، فمثل هذا الكلام خداع للنفس وللآخرين وسبب لتخلف كل انسان أو مؤسسة أو مجتمع يتبنى مثل هذا الكلام. لأن الانسان مسؤول عن أفعاله، وكما هو مسؤول عن النجاح هو أيضاً مسؤول عن الفشل.

ولولا هذه المسؤولية والالتزام بتحقق النتائج لما حدث التطور الكبير الذي نراه في حياة الناس عموماً، ولما تحققت الرفاهية التي تعيشها المجتمعات المتطورة في عالمنا، ولما رأينا التقدم المذهل في مجال الصحة والزراعة والصناعة وعلوم الفضاء والكومبيوتر... الخ.

نظام التفكير السليم يحقق أهدافه ولا بد.. ولا ينافي هذا الكلام الايمان بالقدر، فكل ما يجري على ابن آدم مقدر له من الله تعالى، ومن أقدار الله تعالى النجاح وتحقق الأهداف لمن يعمل بجد، وكذا الفشل لكل مهمل ومتهاون في عمله.. والعقلاء يكافئون المجد ويعاقبون المهمل.

ثالثاً: أن يكون ناقداً

بمعنى أن لا تمر عليه الأحداث والملاحظات والسلوكيات بدون أن يتفحصها جيداً، ويبحث عما خفي بين السطور، ويستشرف ما وراء الكلام والسلوكيات، ويتأمّل في مآلات الأمور، ويتحسب لها قبل أن تقع.

والنقدُ ليس هو تتبعُ العيوب في الشيء موضع البحث، بل هو التحقق من صدقية هذا الشيء وعدم التباسهِ أو تشوشهِ أو خضوعه لاحتمالات متعددةٍ.

فان كان فيه التباس فيجب إزالة الالتباس

وإن كان فيه تشوش يجب توضيحه بما يزيل هذا التشوش

وإن كان فيه احتمالات يجب معرفة كل هذه الاحتمالات.

وقد لا يصل العقل البشري الى الكمال في التحقق من الأشياء لكن يمكنه الوصول الى نسبة مقبولةٍ.. وهذه النسبة تختلف باختلاف الشيء موضوع البحث.. هذا في الأمور الحياتية الاعتيادية.

أما في الأمور التي تتعلق بها أرواح الناس فانَّ نسبة التحقق ترتفع كما في الأمور الطبية وشؤون الحرب مثلاً.

رابعاً: أن يكون منصفاً

أي لا ينتقد لمجرد النقد ولا يشكك لمجرد التشكيك. بل غايته الأولى هي التعلم والفهم، كي تكون قراراته سليمة ولا يقع في المشاكل.. ومن ثم يمكنه الاصلاح إن استطاع لنفسه ولغيره، أو مجرد النصيحة إن تعذر الاصلاح.

والانصاف يقتضي أن تتعلم من الموافق والمخالف وتسمع من الموافق والمخالف.. وصاحب الفكر السليم لا يُنكر قولة الحق وإن صدرت من مخالف، وينكرُ مقولة الباطل وإن صدرت من شخص مقرب موافق له.

والإنصاف ليس سهلاً على النفس البشرية، بل هو من أشقّ الأمور ويحتاج الى مران ودربةٍ وتطبعٍ حتى يألفه الانسان ويستقيم تفكيرُه، فلا يظلم غيره بناءً على مشاعر الحب والكره.. ولا يرفض الأفكار النافعة لأنه يكره أصحابها.. ولا يتقبل الأفكار الضارة لأنه يحبُّ قائلها.

خامساً: المراجعة والتصحيح

النظام الفكري السليم هو نظام يراجع ويصحح أخطائه كل يوم، ويرتقي بموضوعاته وخبراته ومخزونه كل يوم، فالفكرة السليمة الصحيحة قد تتحول

بمرور الزمن الى فكرة مضرة سقيمة، لا بد من مراجعتها وحذفها إن تطلب الأمر، ولا يعني وجود فكرة سليمة أنها لا تراجع.. فالحياة تتحرك وتتغير وتتبدل كل ساعة، ومن جمد فكره على حال واحد، فقد مات عقلياً، وبقي ينتظر الموت الجسدي.

سادساً: تعدد الخيارات

النظام العقلي السليم يحرص دائماً على تعدد الخيارات والحلول في كل أمور الحياة.. مثلاً في حل المشاكل، في التفاوض، في العمل، في الأسرة، في التعلم...الخ.

كلما تعددت خياراتك في الأمر الواحد كلما ازددت تحكماً في حياتك، وتألقاً في أدائك. والخيار الوحيد هو أسوأ الحالات التي يمكن أن يمارسها الانسان. لأنك اذا الزمت نفسك بخيار وحيد ولم ينجح فهذا باب مؤكدٌ للإحباط واليأس. وأغلب حالات الفشل إنما تأتي من الخيار الوحيد.

ماذا لو قررتَ أن تقرأ وتزيد من ثقافتك ومعلوماتك وتطور من شخصيتك، ولكنك التزمت بان لا تقرأ الا من كتاب ورقي، لأنك لسبب أو آخر لا تريد القراءة في الكتب الرقمية؟ لقد وضعت لنفسك خياراً واحداً.

قد لا يتوفر لك الكتاب الورقي، وربما لا تستطيع اصطحاب الكتاب معك خارج البيت، والكتاب الورقي يحتاج الى انارة قد لا تتوفر لك عند انقطاع التيار الكهربائي لأي سبب.. وهكذا ستجد عوائق كثيرة تقوي عندك حالة الاحباط من أنك ستزيد من قراءاتك، وقد تترك القراءة أصلاً بسبب هذا الخيار الوحيد.

أنا عندما أريد أن أقرأ فعندي كتب للقراءة على الحاسب، فاذا تعذرت قراءتي من الحاسب فعندي كتب في الهاتف النقال، فاذا تعذرت قراءتي من النقال فعندي كتب ورقية للقراءة.. لن يمنعني شيء من القراءة إن أردت أن أقرأ.

سابعاً: التعلم المتواصل

لا يوجد نظام تفكير سليم بدون تعلم متواصل، سواء عن طريق القراءة الشخصية أو الدراسة الأكاديمية، أو البحث، أو السماع، أو السؤال، أو مشاهدة الدروس العلمية والأفلام الوثائقية.. واي طريق آخر يوصلك الى المعلومة الجديدة المفيدة.

ولكي تبني فكراً سليماً يجب أن تكون مطلعاً على العلوم والفنون التي تتيسر لك وتستطيع استيعابها.. لأن العقل الذي يتوقف عند علم واحد أو فن واحد سيضيع حتماً في هذه الحياة التي تشابكت فيها العلوم والفنون وذابت الفواصل بينها

الى حد كبير، واختلطت ببعضها أخذاً وعطاءً.. فعملية جراحية متقدمة اليوم يجريها أي طبيب جراح، تضطرهُ لأن يستعين بجهاز كومبيوتر وأدوات الكترونية دقيقة اشترك في صنعها متخصصون في الحاسوب والبرمجة واستخدمت فيها رقائق من شركات لا علاقة لها بالطب، وبالنتيجة اشترك في انجاح هذه العملية المئات من المهندسين والفنيين في مجالات الفيزياء والالكترونيات والميكانيكا والمعادن والبصريات والكهرباء وشبكات الاتصال.. وغيرهم. فالحدود الصارمة بين العلوم تذوب يوماً بعد يوم، وعدم الاهتمام بما تستطيع أن تصل اليه من العلم ولو بحدّهِ الأدنى مضرٌ ولا شك بنظام تفكيرك وأدائه.

....

....

إذا تحققت هذه المواصفات، مع انتفاء الأمراض التي تصيب الفكر والتي شرحناها.. سيكون النظام الفكري الناتج متناسقاً مع الحياة ومع الطبيعة بكل موجوداتها، ومع سنن الله تعالى في الكون، ومع حركة الناس فيما بينهم.

وهذا النظام المتناسق هو الذي سيقود حركة الفرد والمجتمع بصورة أقرب الى المثال. . نعم لن يصل أي انسان أو مجتمع الى المثالية والكمال، فالنقص من طبائع المخلوقات، ولكن يُرجى أن يقترب الى المثال الذي يحلم به كلّ البشر.

ويبقى أن نسأل بعض الأسئلة الختامية:

- هل هذا العمل ممكن؟ . . . نعم ممكن.
- هل هو سهل؟ . . . كلا هو صعبٌ جداً لكنه ليس مستحيلاً.
- هل تحقق مثل هذا التصور عبر التأريخ؟ . . . نعم تحقق في أزمنة وأمكنة متفرقة وفي كل أطراف الأرض وبين كل الأديان والطوائف.
- هل هناك أمثلة؟ . . . نعم إنَّ هذا التصور هو أساس كلّ رسالات الله تعالى الى البشر، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم تؤكد هذا، وسيرة صحابته الكرام تؤكد هذا. . والقرآن الكريم وهو الكلام الخالد المحفوظ يؤكد هذا التصور أيضاً وبالتفصيل.

الخلاصة

١- اصلاح الفكر مقدم على أية عملية اصلاح أخرى لأن الفكرَ هو منشأ كل سلوك وقرار عند البشر.

٢- الفكر البشري لا يصنعه الانسان لنفسه بمفرده، بل يساهم فيه كل من حوله في تشكيل هذا الفكر بدءً بالوالدين وانتهاء بالعالم كله.

٣- الفكر البشري يُبنى بالتدريج من خبرات يكتسبها الانسان عن طريق حواسه وهذه الحواس قاصرة وكثيراً ما تَخدعُ صاحبها إن لم ينتبه.

٤- تؤثر المعتقدات بمعناها الكلي وكذلك القيم والمعايير في تشكيل الفكر، ومن خلالها يقبل العقلُ أشياء ويرفض أخرى.

٥- يصاب الفكر البشري بأمراض كثيرة ذكرنا أهمها وهي: الجهل، والحل الوحيد، والتحيز الإدراكي، والاستعلاء، وتغليب العاطفة، والبقعة العمياء، وفرط الثقة، وتؤدي كلها الى أخطر مرض وهو التعصب والانغلاق.

٦- وهذه الأمراض لها علاج سهل أحياناً وصعبٌ أحياناً أخرى، وقد يكون العلاجُ شديد الصعوبة، لكنه ليس مستحيلاً.

٧- كلُّ ما تحقق في عالم البشر ولو لمرة واحدة ولو لفترة قصيرة، يمكن أن يتحقق مرةً أخرى، ولا يأس مع الأمل فتصحيح الفكر الانساني تتابع عبر التأريخ بأرسال الرسل والأنبياء، حتى خُتمت الرسالات بنبينا صلى الله عليه وسلم.

٨- والعقل البشري بقوانينه العامة كالحرية والعدل والمساواة والانصاف.. يمكن أن يصل الى أقرب نقطة من المثال الذي تحلم الانسانية أن تصل اليه.

٩- بناء النظام الفكري السليم يحتاج الى التعاون والتكامل بين كل فئات المجتمع ومؤسساته الحكومية والأهلية، ولا ينفي هذا دور الفرد ومسؤوليتهُ عن نفسه ومن يعول في هذا البناء.

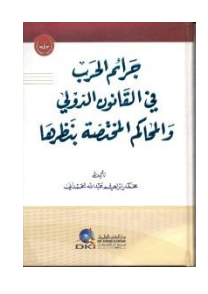
١٠- ما ورد في هذا الكتاب يحتاج الى تكرار وتأمل.. حتى تستفيد مما فيه.. ولعلك تضيف اليه فوائد أخرى.. فالعلم لا ينتهي عند أحد.. وحركة الحياة ستفرض علينا كما فرضت على من قبلنا أن نغير ونجدد ما دام فينا عرق ينبض.

كتب أخرى للمؤلف

****



آفاق الحياة - الطبعة الأولى (٢٠١٣)



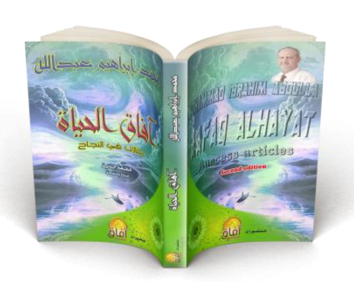
جرائم الحرب في القانون الدولي (٢٠١٤)



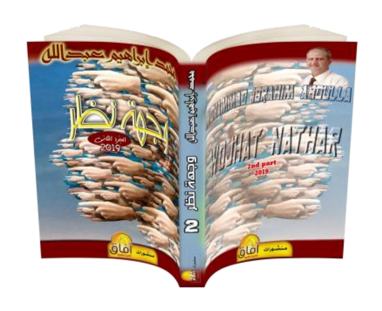
قصص قصيرة جداً (٢٠١٧)



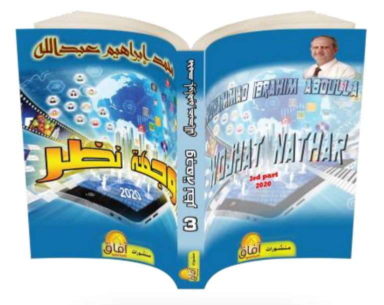
وجهة نظر ج١ (٢٠١٩)



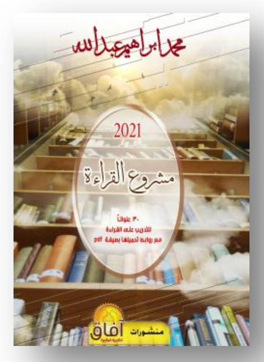
آفاق الحياة – الطبعة الثانية (٢٠١٩)



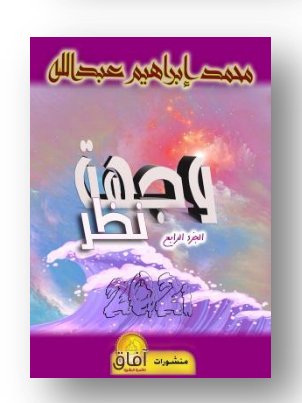
وجهة نظر ج٢ (٢٠٢٠)



وجهة نظر ج٣ (٢٠٢١)



مشروع القراءة (٢٠٢١)



وجهة نظر ج٤ (٢٠٢٢)



باختصار - آراءٌ في سطور- (٢٠٢٢)



الفكــرُ .. هــو أول خطــوة لصناعــة أيّ شــيءٍ فــي الوجود من قِبَلِ الانسان.

وهــذه السُّــنَّةُ الكونيــة هــي الحقيقــةُ الغائبــةُ عــن الكثيريــن، وعــدم الالتفــات لهــا هــو الــذي يــورثُ الفشــل فــي أي خطــوة يقــوم بهــا أيَّ مصلــح أو داعٍ للتغييــر فــي أي شــأن مــن شــؤون الحيــاة.. فــي الديــن، فــي الاقتصــاد، فــي الصناعــة، فــي الزراعــة، فــي الثقافــة والفــن...الــخ

ظاهــراً تبــدوا هــذه الحقيقــة بســيطةً وعاديــة ولا تحتــاج الــى فلســفة كثيــرة، ولا بــذل جهــد ولا كثيــر عمــل. وقــد يهــزُّ الكثيــرون رؤوســهم موافقــة لــك إذا ذكرتهــا.. لكــن الواقــع يقــول غيــر ذلــك.

الواقــعُ أنَّ أصعــب الأشــياء فــي الحيــاة هــو تغييــر الفكــر.

محمد ابراهيم

